مختارات من السياسة العالمية

-٣-

مارسيل كاشان . هنري دنيس

كلود روا - الدكتور اويلسنتر

الصين في موكب النور

ترجمة

يشال سليمان

رابطة الكتاب العرب في لبنان

مكتبة المعارف في بيروت



مختارات من السياسة العالمية
- ٣ -

مارسيل كاشان كلود
هنري دنيس الدكتور [illegible]

الصين

في موكب النور

ترجمة
ميشال سليمان
من رابطة الكتاب العرب في لبنان

منشورات
مكتبة المعارف في بيروت

مختارات من السياسة العالمية

سلسلة مختارة لأشهر الكتاب تعالج اهم مشاكل العالم بصورة عامة والبلاد العربية بصورة خاصة ، تعني بنشرها مكتبة المعارف في بيروت

صدر منهــــا

١ ـ المسألة اليهودية	كارل ماركس	٧٥
٢ ـ الجزائر حتف الاستعمار	ليون فيكس	١٠٠
٣ ـ الصين في موكب النور	كاشان ، دينس . روا	١٠٠
٤ ـ الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي	كلود . بوينان	تحت الطبع

مكتبة المعارف

شارع المعرض ـ بناية الغندور

طابق أول

ص.ب: ١٧٦١ ـ هاتف: ٢٨٨٠١

بيروت

مقدمة

تحرر الشعب الصيني

بقلم : مارسيل كاشان

نحن ممتنون لرفاقنا ، اسرة مجلة « الفكر » – Pensée – لكونهم جمعونا هذه الليلة في دار الجمعيات العلمية ، لكي يحدثونا عن معجزة الصين ، عام ١٩٥٣ ، وعن نتائجها .

وليس ثمة موضوع آخر مثل هـذا الموضوع ، يستأثر بانتباه جميع الناس .

ان سائحين عادا من هناك ، قد اخذا على عاتقهما مهمة اطلاعنا على الحالة الحاضرة لهذا البلد العظيم .

وسيفعلان ذلك ، بامانة ، وتجرد ، وتدقيق كلي ، بوصفهما واقعيين ظريفين .

فالبروفسور هنري دنيز ، الاختصاصي النابغ في دراسة الاقتصاد العالمي ، سيحدثنا عن نتائج الاصلاحات

العميقة ، التي هي قيد التنفيذ ، في جمهورية بيكين الشعبية .

اما كلود روا ، الفنان ، والشاعر ، والعلامة الثاقب البصر ، فسيفتح لنا بمفاتيحه الخاصة ، ابواب اقدم عالم ، تحرر اليوم ، وهو سائر شطر مستقبل جدير بماضيه المجيد .

انه سيعرض لنا عظمة وجه ماوتسي تونغ ، الذي اعلن في اول اكتوبر عام ١٩٤٩ ، وفي القصر الامبراطوري في بيكين ، بزوغ شمس الجمهورية الديمقراطية الشعبية الصينية الجديدة .

وانكم لعلى نفاد صبر للاستماع اليها .

وقد يكون بمقدوري ان اقدم لكم ، بعض الآراء الوجيزة عن التاريخ الحديث العجيب للصين ، المنبعثة على هذا النحو .

ففي عام ١٩٢٠ حصلت على الشرف النادر في سماع لينين ، في المؤتمر التاريخي الثاني للشيوعية العالمية ، الذي كان له في فرنسة دوي جد حاسم .

وفي خطابه الافتتاحي ، دعى رفيقنا العظيم ، المؤتمرين الحاضرين الى التأمل بالأيام العشرة التي هزت العالم ، قبل ذلك بعشر سنوات في وطنه بالذات . وقد اعلن ايضاً ، بانه يستشرف أحداثاً اكثر حسماً ايضاً ، في اسية العجيبة الغامضة ، وفي داخل جميع بلدان العالم ، التي ما زالت مستعمرة ، والتي يسترقها الاستعماريون .

وقد اكد لينين تأكيداً يكاد يكون نبوءة ، ان الذي

يجهز في كل مكان انما هو جهد قريب وحتمي لتحرر هذه الشعوب المنسحقة الساغبة ، المهانة ، واستقلالهـــا . وعند ما تتملص مئات الملايين من البشر ، من ربقة اللصوص الطغاة القساة ، الذين يعيشون على فقرها واستعبادها منذ قرون ، سيشهد العالم انهيار الرأسمالية باسرها . هذه الرأسمالية الـتي ستضرب الضربة القاضية .

على هذا النحو ، تنبأ لينين ، ان سيتقرر مصير العالم الحديث .

وان النور سينبلج من الشرق !

ومنذ عام ۱۹۱۷ ، وفي روسيا نفسها التي كانت حتى ذلك الحين ، مستعمرة حقيقية ، خاضعـة لنهب الرأسمـال الكوسموبوليتي ، اعطى الشعب السوفياتي المثل ، بتسلمـــه ذمام السلطة في بتروغراد وموسكو . وقد اعاد الى شعوب روسيا الخيرات والثروات التي استأثرت بها ، واستثمرتهـا عصابات اصحاب البنوك ، والاحتكاريون العالميون .

وهكذا ، عقب مرور ثلاثين عاماً ، وجدت الصين ، الواثقة من نفسها ، ان لديها من القوة ما يمكنها من ان تحذو حذو الاتحاد السوفيات .

وبفضل اتحاد العمال ، والفلاحين ، والمثقفين ،والديموقراطيين المتحدين ، استطاعت الصين ان تطرد من مساحـة ارضهـا الشاسعة ، جميع لصوص الاستعمار الجشع . لقـــد قهروهم بالقرابين التي قدموها دونما عد ، وبالتفاني الذي لا يحد .

فطردوا في باديء الامر ، الرأسماليين اليابانيين ، الذين اعتدوا عليهم بوحشية ؛ ثم كانت نوبـــة الامريكيين وصنيعتهم ، النجس تشانـــغ كاي شك ، خائن الكيومنتنغ ، وحزب الشعب الذي اسسه سان يات سن . لقد اصبح هؤلاء جميعاً اسياداً في بلادهم .

وعبثاً يخادع الامريكيون انفسهم بأمل الانتقام بواسطة الهجوم العدائي . انهم لن يدخلوا الصين بالقوة . ولن يدخلوا الاتحاد السوفياتي ايضاً !

على هذا النحو ، تمكنت مئات الملايين من الرجـــال والنساء ، وزهاء مليار من البشر ، من قلب عالم الاستثمار الهرم ، في غضون السنين التي عشناها .

وبمقدورنا من الآن فصاعداً ، ان نقول : هذه ليست سوى فاتحة بشرى بالمستقبل .

ان النصر النهائي الذي حققته الصـين الشعبية البطـلة ، عقب النصر الذي احرزه الاتحاد السوفياتي ، ليسا سـوى مقدمات واستهلالات وطلائع احداث عالمية ، اكثر حسماً واعظم شأناً .

وفي هذه الساعة بالذات ، ثمة وثبـــة متزايدة الشمول والخطـورة ، يشب اوارها في آسيا ، وافريقيا ، وامريكا الجنوبية والوسطى . وفي كل مكان . انها الارادة التحررية المتزايدة الوضوح ، التي تنتفض بجميع امكانيات الرجـال والنساء ، ضد آخر اشكال سيطرة استعمار قضي عليـــه ،

ورأسمال طفيلي متعفن .

وليس بمقدور اية قوة بشرية ، او اي عنف ، ان يسد منفذ هذا السيـــل الجارف او مساربه . انه النصر القريب لجميع الشعوب التي عزمت على ان تنعتــق ، وان تعيش حرة هي ايضاً ، وبسلام . وان تحقق حضـــارة انسانية ، تكون بنهاية الأمر ، جديرة بهذا الاسم .

فماذا اعطت الصين القديمة ، المأثرة المجيــدة ، لانسانيــة جديدة ؟

هذا ما سيقوله لكم هنري دنيز ، وكلود روا ، ودليلها في ايديها . لقد شاهدا الصين الحرة ، بام العـين ، شاهدا الصين التي لن تهان ابد الدهر .



- ١ -

الثورة الاقتصادية
في الصين الجديدة ...

ان احدى المسائل المهمة ، التي تقلق اليوم ، الاقتصاديين في فرنسه ، او في البلدان الانكلوسكسونية ، هي مسألة البلدان « المتخلفة » . ويتساءلون بوقار ، عن العوامل التي بقدورها ان تشرح ضعف « الدخل الوطني » ، ومستوى الحياة في الهند ، وافريقيا ، او في امريكا الجنوبيـــة . ويحسبون بدقة فائقة ، حجم الرساميل التي يجب تهيئتهـا ، لاجل تصنيع وتجهيز مناطق مماثلة ؛ ويرسمون على الاوراق ، تصاميم عجيبة ، لاجل توظيف الاموال على الصعيد العالمي .

ولكنهم بالفعل ، لم يقدموا اي حل للمسألة المطروحة . فالى مَ اذن ، يعود عقم هذه المناقشات ، وهذه التصاميم ؟ انه بكل بساطة ، يعود الى كون تلك المناقشات والتصاميم تدور في حلقة مفرغة ، لان الاقتصاديين هؤلاء ، لا يريدون مطلقاً الرجوع الى العوامـــل التاريخية ، التي تغير الوضع المحزن ، الذي تتردى فيـه هـذه البلدان . . المتخلفة ، ويتهاونون عن ان يطرحوا صراحـة ، مسألة الشروط السياسية ، التي يجب ان تكون مجتمعة ، اذ اريد تبديل هذه الحالة .

ان مجاعات الهند ، وبؤس افريقيا ، او امريكا اللاتينية هي نتيجة الاستثمار الوقح ، واللصوصية الفعلية التي تمارسها الرأسمالية المسيطرة في هذه المناطق . ولن ينتج ابدا تبدل طويل الامد ، ما لم تخلف الاقطاعيات المحلية التي يؤازرها الرأسمال الاجنبي ، سلطة شعبية مستقلة .

وان لدينا اليوم ، من هـذه القضية التي فرغنا من تبيانها ، مثالاً حياً ، الا وهو : الصين ، اقوى امة في العالم ، من حيث العدد ؛ والتي كانت حتى عام ١٩٤٩ تحت وطأة النير الاجنبي ، تحقق اليوم ، بقيادة حكومتها الديموقراطيـة ، الثورة الاقتصادية ، التي تسمح بتحسين مستوى حياة شعبها ، سنة فسنة .

واني لا اعتقد ان من غير المجدي ، الاصرار على المنفعة الضخمة التي تقدمها هـذه التحولات الاقتصادية ، في الصين الجديدة ، لكل من يقلقه مستقبل مئات ملايين البشر ، من معاصرينا في المناطق المتأخرة ، والذين لم يتمكنوا من الوصول الى حياة انسانية .

ففي غضون اربع سنوات ، حققت الصين على نحو رائع ، اعظم اصلاح زراعي في تاريخ الانسانية دونما ريب . فتطرقت الى مسألة حماية ارضهـا من النكبات الطبيعية ، التي كانت تجتاحها . وقد حلتها بالفعل وأممت لمصلحة الشعب المؤسسات الصناعية ، ووسائل النقل ، التي كان الاجانب يستثمرونها في السابق ، مؤكدة بذلك اعادة

تعمير ما كان قد خرب ، ومحققة تطوراً هاماً في تجهيزها .
واهتمت ايضاً في تحسين شروط حياة الكادحين ، وأولت
شروط الصحة والمسكن اهتماماً خاصاً . وقد كان لي شرف
رؤية النتائج التي حققت حتى الان ، في مختلف الحقول ،
بام عيني ؛ واني لراغب في استحضار بعض ذكريات سياحة
الشهر ، التي قمنا بها خلال الصين ، من بيكين الى شنغهاي
ونانكين ، بدعوة من جمعية اصدقاء فرنسا — الصين .

ـ الاصلاح الزراعي ـ

إن الصين ، هي حتى الآن ، بلاد زراعية ، بصورة
خاصة . وخلال رحلتنا في القطار من بيكين حتى شنغهاي ،
اجتزنا سهل الصين الشمالية الكبير ، حيث توجد اخصب
اراضي الدنيا ، يخترقها النهران الكبيران : هوانغ هو ،
وينغ تسي كيانغ .

ومن مساحة الالف والمئتي كيلو متر التي اجتزناها ،
بدت لنا الصين اشبه ببستان شاسع ، زرع على نحو ما
تزرع السباخ عندنا تقريباً . والشيء الذي يؤلف حول
مدننا نطاقاً يمتد بضع كيلومترات ، يمثل هنا مقاطعة اكبر
من فرنسه بكاملها . ان كثافة السكان ، لتتعلق بالعمل
الخارق الذي يتم في هذه السهول ؛ والقرى تتوزع الواحدة
منها قرب الأخرى ، على التوالي ، محاطة باشجار دقيقة

الأوراق .

الارض هناك ، منقسمة الى مربعات صغيرة ، بواسطة اقنية الري العديـــدة ، وفوق اديمها انتثرت آكام ، هي مقابر الأسلاف . وضمن هذا الاطار المدهش ، في نظرنا ، انتشر الاصلاح الزراعي .

فلنلق نظرة عجلى على النظام العقاري ، للصين القديمـة — ما قبل عام ١٩٤٩ — ولنسترشد لهذه الغاية ، وبصورة خاصة ، ببيانات الاختصاصي الفرنسي الاشهر : بيير غورو عما يتعلق بالمسائل الزراعية في الشرق الأقصى .

ففي كتابه « الارض والانسان في الشرق الاقصى » المنشور عام ١٩٤٧ ، يشير السيد غورو الى ان في الصين اكثر من خمسين مليوناً من الاستثمارات الزراعية . وان متوسط مساحة الاستثمارة هو هكتار ونصف الهكتار . وان متوسط ما يزرعه العامل العازب هو خمسة واربعين هكتاراً فقط ...

ان نصف الاراضي تقريباً ، يملكها الملاكون العقاريون غير المستثمرين .

فالمزارع حسبما يقول السيد غورو ، يدفع نصف مردود الاراضي الخام ، بالاضافة الى اعباء مختلفة ، وكثير من الهدايا ، يقدمها بمختلف المناسبات . وفوق ذلك ، فهـــو الذي يتحمل جميع النفقات على الادوات ، وشراء الماشية ، والبـذار .

وسواء اكان الفلاح يملك قطعة ارض ضئيلة ، ام كان مزارعاً ، يجب عليه ان يدفع الضرائب الباهظة . وحالته هي من اسوأ الحالات . وغالباً ما يضطر في فصل الشتاء الى ان يضع ادوات انتاجه في جبل التقوى (١) لكي يحصل على مبلغ يدفعه ثمناً لبذاره . وكانوا يأخذون منه عن هذه القروض ، فائدة سنوية تتفاوت بين اربعين وثمانين بالمئة ، وقد تبلغ مئة بالمئة ، في مدى ستة اشهر ، عندما يتوجه الى دائنين خصوصيين .

ان بؤس الفلاح الصيني الفادح ، ليظهر ايضاً في طريقة غذائه .

لقد كتب السيد غورو يقول :

« ان الفلاحين ، بدافع الفاقة ، يأكلون سقط المنتوجات ، ويبيعون الغلال الجيدة جداً .. الفلاح الصيني يبيع قمحه ، ويستهلك الكاو ليانغ – وهذا ضرب من الذرة يصنع منه طعام غليظ ..

« ان استهلاك السكر في الصين يكاد يكون عدماً : ففي الارياف ، لا يعرفون ما هي قطعة السكر ..

« وفي فترات البطالة ، ينزوي الفلاحون الفقراء في ضرب من « التجليد القهري » ، ينامون كثيراً ويأكلون قليلاً ؛ وغالباً ما يأكلون وجبة واحدة من الطعام في اليوم . واذا

---

(١) جبل التقوى : تعبير مجازي خاص بالصين ، يعني رهن ادوات الانتاج — المترجم —

ما هددهم القحط ، يعيشون على حساء من الاعشاب البرية ، مع بضع قبضات من الدقيق ، او بعض حبات من الارز..».

لقد كان السيد غورو عام ١٩٤٧ جـد متشائم ، فيما يتعلق بمستقبل الفلاحين الصينيين ، حيث كتب يقول :

« ان فقر اربع مئة مليون فلاح في الجزء الاقصى من آسيا ، مرده الى ضخامة عددهم بالنسبة للمساحة المزروعة . وبالامكان مواجهة بعض التحسينات التكنيكية ، ولكن يجب الا ينتظر من هذه التحسينات تبديلاً عميقاً لحالة الفلاح في الشرق الاقصى » .

ان تشاؤماً مماثلاً ، لم يكن له ما يبرره . فالارقام نفسها التي يعددها السيد غورو تقدم لنا الدليل .

فهو يشير بصورة خاصة ، الى ان مردود القمح في الصين ، كان ثمانية كنتالات في الهكتار فقط ، وان النسبة المئوية المزروعة من الارض هي سبعة وعشرون فحسب . ان مردوداً مماثلا ، كان بالفعل بالغ الضعف ، مع مراعاة نوع الارض ، ولا يمكن تفسيره الا بفقدان ادوات الانتاج الحديثة ، وفقدان الاسمدة . وبالتالي ، فان القسم الضئيل الممثل بالمساحة المزروعة ، كان يجد تعبيره بوجه خاص ، بالاجهاز التام على اشجار الاكام والمناطق الجبلية ، الامر الذي استحال علاجه .

ان تقدمات عظيمة هي ممكنة التحقيق اذن ، في الزراعة الصينية ، ولكن شريطة ان يبعد الملاكون العقاريون غير

المستثمرين ، الذين لا هم لهم سوى استمرار ملكية مزارعهم فقط ، دون ان يبالوا باساليب الزراعة . ولم يكن بد ايضاً من حكومة تهتم بالمصلحة العامة ، وتقدم التجربة ، والمساعدة اللازمتين .

وهذان الشرطان قد اجتمعا اليوم . ومنذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٢ وزعت على الفلاحين الفقراء ، جميع الاراضي التي يملكها الملاكون العاطلون — اى نصف ارض الصين تقريباً — وانتهى في القرى حكم الاسياد — ، وحلت محلهم منظمة بلدية ديمقراطية ، قوامها افقر فئات الفلاحين ، وبالتالي تعمل طبقاً لمصالح المجموع . فيما الحكومة المركزية توجه كل شيء ، لاجل ترقية مستوى الحياة في الريف .

وقد تحققت النتائج ، واضحى بمقدورنا ادراكها ، اثناء الزيارة التي قمنا بها لقرية تين — تسن الصغيرة ، قرب بيكين . والارقام التي سأقدمها ، تتعلق فقط بهذه القرية الصغيرة .

بيد ان الفلاحين الصينيين الكثيري العدد ، يؤلفون آلافاً من القرى الكثيرة الشبه بالتي شاهدناها . وقد حدثت ذات التحولات في كل مكان .

تضم قرية تين — تسن ثلاثمئة وخمسة وتسعين منزلاً تأوي الفاً وستمئة واربعة وستين شخصاً ، وجميعهم يستثمرون الفين وثمانمئة واثني عشر « مو » من الارض ، اي ما يناهز مئة واربعة وتسعين هكتاراً ، ربعها يزرع أرزاً .

قبل الاصلاح الزراعي ، كانت ثماني عشرة عائلة من الملاكين العقاريين ، تملك مجتمعة الفا واربعمئة وثمانية واربعين « مو » اي اكثر من نصف املاك القرية .

وكان الكثير من الفلاحين الذين لا يملكون سوى قطعة ارض مربعة ضئيلة ، او لا يملكون شيئاً البتة . وكان يجب عليهم ان يعملوا في اراضي كبار الملاكين العقاريين في مقابل اجور جد بخسة : اي يتقاضون حنطة بمبلغ مئة وخمسين ليرة سنوياً . ولم يكن لهم ايما اسهام في ادارة القرية . بل كانوا خاضعين للعديد من ضروب السخرة . وعندما جاء اليابانيون ، وارغموا الفلاح ايضاً على العمل في التحصينات ، اصبح البؤس فوق حدود التصور .

وفي شهر كانون الاول عام ١٩٤٨ ، استقبل الجيش الاحمر الصيني بوصفه محرراً . وحصل الاصلاح الزراعي في غضون شتاء السنة التالية . وبعد ان انتزعت الارض من الملاكين العقاريين ، تسلم كل فرد من افراد عائلات الفلاحين الفقراء «،موين » ونصف « المو » من الارض . وقدمت الحكومة للعائلات المعوزة مبلغ اربعة وعشرين مليار «ين» في السنة . وللحال شمخ الفلاحون برؤوسهم واستعادوا الامل وازدادت انتاجية العمل بصورة خاصة ، بفضل تطور استعمال الاسمدة الصناعية ، التي كانت مجهولة تقريباً في الماضي ، وقفز مردود « المو » الواحد في السنة من خمسة وسبعين كيلو حنطة الى مئة وعشرة كيلوات — خلال موسمين —

وسمحت اعتمادات الحكومة بحفر اربعة آبار جديدة ، وانشاء ثماني وعشرين مطحنة مائية ، وشراء سبعة واربعين رأساً من الماشية ، واصلاح ستة وسبعين مسكناً .

وتنظمت سبع وستون عائلة في « فرق تعاونيـة » . وانتسبت ثماني عشرة عائلة الى تعاونية للانتاج ، تزرع مئتي وخمسة « مو » من الارض ، من بينها اربعين « مو » تزرع ارزاً .

وبعد ان أعطينا تلـــك الايضاحات ، انقسمنا فرقاً صغيرة متعددة ، بغية زيارة فلاحي القرية في مساكنهم .

اما انا فقد دخلت مـنزل تسنغ ــ ري ــ كون ، وهو فلاح متوسط ، يملـك ستة عشر « مو » من الارض ، ولم يزد ملكيته اثناء الاصلاح الزراعي . بل صرح بانه جد مرتاح للتسهيلات الجديدة ، التي حصل عليها لاجل العمل . وقد نظم مع عائلتين اخريين ، فرقة تعاونيـة للحراثة . وسهلت التعاونية التي انشئت في القرية ، مبيع انتاجـه ، وامدته بالمواد الصناعية . وبات يأخـذ من مستودع صغير صحيفة مليئة بمسحوق كيمياوي : هو السماد الاصطناعي . وهذا شيء جديد كل الجدة ، بفضله كاد مردود اراضيه ان يتضاعف . انه لسعيد .

وفيما كانت عرباتنا تتجه بنا شطر بيكين ، خـــلال الطرقات الوعرة ، رحنا نتبادل انطباعاتنا .

كثيرون منا زاروا فلاحين فقراء ، هم اول المستفيدين

من الاصلاح الزراعي . وقد بين هؤلاء لرفاقنا ، الشيء الذي كانوا يجهلونه في السابق ، الا وهو : مدخرات مهمة من التبغ والارز ، والذرة ، والقمح . وقد تأثرنا بالغ التأثر ، وفكرنا قائلين : في هذا اليوم قدر لنا ان نشاهد بواكير اثمار الثورة الزراعية ، التي اعطت ملايين الناس هذه الطمأنينة الضئيلة ، التي ليست الحياة بدونها سوى عبء باهظ .

ولكننا فكرنا ايضاً ، ان هذا الاصلاح الزراعي ليس سوى مرحلة من الطريق الذي سيؤدي الى نمو عجيب لمردود الارض الصينية ، وأستعمال الوسائل الميكانيكية الحديثة ، ضمن اطار الزراعة الكبير . وفي ذات الوقت ، ستتحول بالفعل شروط الحياة في الريف ، تحولاً عميقاً .

وبذلك سيفقد الريف الصيني قليلًا من فتنته ؛ ولكن ليس ثمة من يأسف له ، في مقابل النتائج الكثيرة التي لا مناص من الحصول عليها ، في تصميم التصور الانساني .

النضال ضد النكبات الطبيعية

ان تتمة الاصلاح الزراعي في الصين ، ليست غير النضال ضد الجفاف والفيضانات . ان سهل هوبي ، حيث بنيت بيكين ، يرويه نهر يونغ – تنغ . وعلاوة على هذه العبارة التي تعني « البقاء الابدي » ، لا يتخلف النهر ، كل ثلاث

سنوات تقريباً ، عن ان يجتاح ضفتيه ، مكتسحاً المزروعات ، مغرقاً الاف الفلاحين . وكانوا منذ زمن بعيد يتحدثون عن تنظيم مجراه .

بيد ان العمل ذاك لم يكن « مغلاً » . ولم تكن حياة الفلاحين بشيء يذكر . ان النظام الجديد ، هو جزء من اسس مختلفة . فالشعب يجب ان يأمن غائلة الافات الطبيعية وستتحقق الاعمال الضرورية بفضل عمل الشعب الحماسي .

وها نحن اذن ، عقب جولة في السيارة ، فوق اديم الطرق الرهيبة ، وعلى مسافة مئة وثلاثين كيلو متراً من بيكين ، باتجاه الشمال الجنوبي . وقد ترامت امام ابصارنا مناظر طبيعية من الصلصال ، هي جديدة في نظرنا .

ان نهر يونغ – تنغ ، يتكون من تجمع نهرين على مسافة ثلاثين كيلو متراً من هذا . فتبالغ مياهه في تخريب الاراضي الرخوة . وقد شهدنا يأخذ طريقه وسط جبال ، في رقبة ضيقة ، يسير خلالها مسافة مئة وثلاثة عشر كيلو متراً قبل ان يصب في السهل ، ويتجه شطر البحر .

وفي هذا المكان ينجز بناء سد كوان – تنغ ، الذي سيلجم المياه من الآن فصاعداً في فترات الفيضانات .

ان الصين يعوزها الاسمنت كما تعوزها اشياء عديدة ايضاً ولذلك انشأوا ، بناء على ارشادات مهندسين سوفياتيين ، سداً من التراب ، كثافة قاعدته ثلاثمئة وخمسة وستون متراً ، وارتفاعه خمسة واربعون متراً ، وعرضه مئتان وتسعون

متراً . فتنعطف المياه ، جارية في قناة تحت الارض . مجهزة بثمانية سدود .

وقد انشئت ، احتياطاً ، فوق الارض ، قناة من الاسمنت لاجل انصباب المياه . وهـــذا العمل ، بمقدوره استيعاب مليار متر مربع ونصف المليار من المياه ، مكوناً بحيرة، مساحتها مئتا كيلو متر .

ان هذه الارقام تبدو باهظة . بيـد ان استقبال عمال السد لنا ، يعطينا فكرة ما ، عن الطريقة التي نفذ فيهـــا هذا العمل .

ومنذ ما اقتربنا من فريق من العمال ، في هذه الورشة الشاسعة ، التي طوفنا في جميع جهاتها ، تعالت اصداء التصفيق ورحبوا بنا ، ومدوا لنا الايدي . كم هم فخورون هؤلاء الرجال في اطلاعنا على ثمرة كدحهم !

كانت سعادتهم تتجاوز مشقة عملهم الصعبة . وخلال سنتين كدس ثلاثون الف رجـــل ، منتظمين في ثلاث فرق ، ومجهزين بالوسائل الحديثة ، هـــذا الجبل الترابي . وارغموا النهر على ان يدور حوله . ان الحرارة هنا لتـــنزل حتى الدرجة العشرين تحت الصفر ، اثناء الشتاء . وفي اكثر من مرة ، كان يتوجب العمل في غمرة من الميـــاه . وكانت الفترات الاخيرة اكثر الفترات تأثيراً . وفي غضون الصيف الماضي ، وقبل ان يبلغ بناء السد الارتفـاع المطلوب ، بانت طلائع فيضان استثنائي يهدد بجرف كل شيء . وادرك

الخطر كل فرد . وخلال ستين يوماً ، نقل سبعمئة الف متر مكعب من التراب ، الامر الذي سمح بتلافي الخطر .

لقد تحدثت بادىء الامر ، عما شاهدته بنفسي ، في حقل هذه الاعمال الجبارة ! لكن ثمة مهمات ، اكبر من هذه واعظم ايضاً ، كانت قد انجزت فوق ارض الصين الشاسعة ولنذكر منها بصورة خاصة ، الاعمال العجيبة في نهر هواي ، المشتملة على ثلاثة عشر حوضاً ، وسبعة عشر مستودعاً ، سعتها الاجمالية عشرون مليون متر مكعب من المياه . ويجب ايضاً ان نشير الى جميع اعمال تجديد وتكثير السدود في كل انحاء البلاد ، وعن السبعمئة الف بئر جديدة ، التي حفرت ، لكي تقي المزروعات شر الجفاف .

واليكم الوصف الذي يقدمه السيد بيير غورو عن النكبات الطبيعية ، التي كانت تعيث في الصين اضراراً لبضع سنوات خلت :

« ان الجفاف يتلف الغلال على رقعة شاسعة من الصين الشمالية ... فيبيع كل فرد جميع ما يملكه ... ويبيع بعض الفلاحين حتى اطفالهم ونساءهم ... لكن المال الذي يحصلون عليه بهذه الطريقة ، لا يمكنهم في الغالب من ابتياع الطعام ، سقط الطعام على الاطلاق ؛ ويصبح لزاماً عليهم اكل الاعشاب ، والجذور ؛ فتنشأ حتماً الرغبة في اكل لحم البشر . ويهرب عدد كبير من الفلاحين الى المدن ، بل جمهور بائس يترك وراءه ركاماً من الموتى . ويجد البائسون

منهم بعض الاشغال البخسة الاجور ، التي تكفيهم غائلة الموت جوعاً ؛ او يستعطون ، من سكان المدن ، حثالة القدر من الارز المحروق ، الذي يأنف من اكله البورجوازي الميسور .

« ان قسماً كبيراً من السكان قد لقي حتفه . والذين ظلوا احياء ، ادركوا آخر حدود الالم النفسي والطبيعي . وقد يكون للفيضانات نتائج اكثر فظاظة من الجفاف : الذي لا يتلف سوى الغلة ؛ فيما الفيضان يغرق الناس ، ويبيد المؤن الموجودة ... »

واليكم الآن حكم عن الحالة الحاضرة ، مشكوك في تغرضه لمصلحة الصين . وقد اخذ من دراسة للسيد جونين عنوانها « الصين على عتبة مشروعها الاول للسنوات الخمس » وقد نشرته مجلة « العمل الشعبي » التي يصدرها الاباء الياسوعيون – عدد اذار عام ١٩٥٣ –

يقول جونين :

« ان عصر المجاعات الكبرى قد افل في الصين ، وشر الفيضانات التي كانت تتلف غـلال الاقاليم باكملها ، اصبح لا يؤبه له . وتقدم وسائل الري ، قلل من خطر الجفاف . واكتشفت ملايين الهكتارات من الاراضي الجديدة الصالحـة للزراعة . وتجـدد التكنيك الزراعي .

« وجمعت خطوط المواصلات الجديـدة ، بين اكثر الاقاليم

بعداً ... وستأكل مئات الملايين من الناس عندما تجوع . » .
ان مثل هذا المصدر ، يسمح بمقايسة الطريق التي اجتازتها
الصين الجديدة .

التطور الصناعي

— وتحسين شروط حياة الطبقة العامله —

ليست المهمة التي انجزتها الجمهورية الشعبية الصينية في الحقل
الصناعي بأقل من المهمة الزراعية . وانه لضروري ان
نشير ، بانها انجزت بفضل الارشادات التكنيكية والمعونة
المالية التي قدمها الاتحاد السوفياتي . انها تجربة الاتحاد
السوفياتي ، التي سمحت بكل وضوح ، منذ عام ١٩٥٣
بتنفيذ برنامج السنوات الخمس الاول لحكومة الصين الشعبية .
ان الانتاج الصناعي الصيني قبل الثورة ، لم يتجاوز قط
درجة عشرة بالمئة من المبلغ الاجمالي للانتاج الوطني . لقد
كان في قبضة الرأسماليين الاجانب ، الاوروبيين او اليابانيين
من جهة ، ومن جهة اخرى بين ايدي العائلات الرأسمالية
الصينية الاربع . وكانت الحالة نفسها فيما يختص بوسائل النقل ،
وعشية التحرير كانت اهمية التخريب هائلة . وفي عام ١٩٤٧
تدنى الانتاج الصناعي عشرة بالمئة عن الحد الاعلى الذي
بلغه في الماضي .
كان على الديموقراطية الشعبية بادىء الأمر ، ان تؤمم

المرتكز الصناعي الذي كان في حوزة الرأسمال الاجنبي والعائلات الاربع . وهكذا خلق مرتكز الدولة الذي هو الاهم في الساعة الحاضرة ، لانه يمثل سبعين بالمئة من مجموع الانتاج الصناعي . اما المرتكز الخاص ، فقد حُرض على انماء نشاطه ، وقد حقق بذلك توظيف اموال هامة ، تحت اشراف الدولة .

وضمن هذا الاطار ، سارت اعادة بناء الصناعة سيراً حسناً . ومنذ اليوم تجاوزت ارقام جديدة ، وفي سائر الفروع ، تلك التي حققت قبل عام ١٩٤٩ . وكانت نسبة التجاوز المفترضة عام ١٩٥٢ خمسة عشر بالمئة للكهرباء ، وسبعة وخمسين بالمئة للفولاذ ، وثمانية واربعين للاسمنت ، الخ .. وثمة ارقام بالواقع تجاوزت هذه الارقام المشار اليها ، لان الارقام المنشورة حديثاً ، تشير بان الصناعة في مجموعها ، قد انجزت برنامجها لسنة ١٩٥٢ مئة واثني عشر بالمئة .

وثمة اعمال كثيرة هي في طريق الانجاز ، ففي عام ١٩٣٦ – ١٩٣٧ ، لم يكن في الصين سوى مليونين ونصف المليون من العمال في المؤسسات الصناعية الحديثة ، في مقابل اثني عشر مليون عامل حرفي ، وثلاثين مليوناً من ربابنة زوارق ، ونوتيين .

ومع ان نسبة عمال الصناعة هي حقاً اقوى من ذي قبل ، فمما لا ريب فيه ، ان ارث الماضي الصناعي المتأخر ما يزال بادياً في الصناعة الصينية . وقد استطعنا ان نشهد

ذلك في غضون رحلتنا .

ان المدن الصينية هي دائماً آهلة بالحرفيين المتجمعين في مهن . ففي بيكين أو شنغهاي يمكنك ان ترى شارع صانعي القناديل ، وشارع صانعي الكمان ، او الازهار الاصطناعية المعدّة للأعراس ... وثمة آلاف من العمال يخصصون لصنع الاشياء التقليدية ، قيمة عمل بالغة الارتفاع .

ان الشوارع الرئيسية من جهة اخرى ، هي الى حد بعيد غاصة بالحمالين الذين ينقلون احمالهم على عربات ، او يعلقونها في طرفي قصبة هندية ، توضع على الكتف بتوازن .

وأخيراً يجب ان نكون شاهدنا مرفأ شنغهاي ، عند المساء لكي نلم بمدى المسائل التي طرحها تجديد الاقتصاد الصيني . فالانهار والأقنية التي تصب في اليانغ بو احد روافد نهر يان — تسي ، هي غاصة بآلاف الزوارق ، التي تؤمن نقل البضائع من داخل البلاد . اما عائلات الملاحين ، فانها تعيش ، وتنام في المساء على الارصفة ، وتلتحف بأغطية خشنة . انه لمشهد مؤثر ، بكل مايعبر عن حاجات ضخمة ، وعن امكانيات واسعة ايضاً لدى الشعب الصيني .

وقد تطرقت الحكومة الشعبية ، دائماً وابداً ، الى مسألة تلبية هذه الحاجات ، واستخدام هذه الامكانيات . انها تعمل دونما كلال ، لتحسين شروط حياة الجماهير البشرية . وقد استطعنا ان نلم بالنتائج التي حصلت ، اثناء زيارتنا

خاصة لمركز تشاو – ينغ العمالي ، في الضاحية الغربية من شنغهاي .

لقد اسس المركز في ربيع عام ١٩٥١ ، وهو يضم الآن خمسة آلاف وتسعمئة منزل ، يقطنها ثلاثون الف شخص . ويوجد في المركز مدرستان تضم الفين وخمسمئة تلميذ ، وحديقتان للأطفال ، وتعاونية ، وثلاثة حمامات عامة ، وثلاث اسواق ، ومستوصف مجاني ، وبنك للشعب ومكتب بريد ، وثمانية حوانيت مياه ساخنة – وهذه الاماكن هي بمثابه الخمارات عندنا – . وقيل لنا بأنه سيفتح فيها ايضاً مأوى للاطفال ، مع مستوصف جديد . وقد خصصت اراض لبناء سينما ومستشفى . وثمة خط للاوتوبيس يصل المركز بالمدينة المجاورة .

وطلبنا الدخول الى المنازل ، والتحدث الى السكان ، فاستجابوا لرغبتنا طواعية ، وقدموا لنا ايضاحات جد مفيدة .

فهذا مثلاً تشن – ينغ – كن ، عامل ماهر في مصنع الماكينات الوطني . انه في الثانية والثلاثين من العمر ، ولكنه بدا لنا اكثر فتوة من ذلك ، كما يحدث في غالب الاحيان . انه يرتع في غرفة ، ضمن منزل يأوي ثلاث عائلات في الطابق الارضي ، وثلاث اخريات ، في الطابق الثاني . اما المطبخ والمغسلة فهما مشتركان بين الجميع . ان شروط السكن هذه ، قد تبدو لنا جد ضيقة ايضاً . لكن وجه العامل كان يطفح بالبشر وهو يحدثنا عنها .

لقد كان قبل الخامس والعشرين من شهر حزيران الماضي ، في شنغهاي ، يسكن غرفة ضيقة واطئة ، وسخة ، ووخيمة تتسع لاثاث منزله القليل ، الحديث اللماع ، مع صناديقه الصينية المكدس بعضها فوق بعض ، والتي اظن بأنها تستخدم كخزانات . ان اجرة هذا المسكن لا تتجاوز ثلاثة بالمئة من الاجرة التي يتقاضاها من المصنع . انه سعيد .

وقد زرنا ايضاً محلة المتاجر ، حيث ابصرنا سوقاً جد رائجة ، وخياطاً «على القياس» ، ومحل حلاقه جد حديث ، وقد بدا واضحاً ان المجاعة التقليدية قد قهرت هنا قهراً نهائياً . وان الناس يتجهون رويداً رويداً ، شطر حياة ميسورة .

ويقاس التحول العجيب الذي يتم في الصين ، عندما يصفى في هذا المركز العمالي ، مثلو المهن التقليدية الصغيرة . ففي مدينة تشاوينغ مثلاً ، يستمر الطباخ النقال ، في متابعة مهمته . انه يتنقل من بيت الى آخر ، حاملاً موقديه المعلقين الى طرفي قصبة هندية . وهذا يشكل تناقضاً مؤثراً ، مع المنازل والمتاجر الحديثة البنيان . ان الناس هنا ، لفي سبيل اجتياز مرحلة ببضع سنوات ، سار الغرب قروناً لاجل اجتيازها .

سيدرك الشعب الصيني

– الهدف الذي يسعى اليه –

فهل بمقدور الصين انجاز التصاميم التي اخذت نفسها بها في الساعة الحاضرة ؟

اما انا فمقتنع بذلك ، لانني استطعت ان ارى بام عيني ، المزايا الانسانية الخارقة البادية في شعبها .

فالحمية ، والنشاطية الزاخرة ، الى جانب الحكمة والحس المرهف لمتطلبات الحياة الجماعية ، والحب التلقائي للنظام ، هذه المزايا المتناقضة : كم مرة شاهدناها مجتمعة في ذات الاشخاص ، وذات الفرق .

ان اكبر المطلعين على المدنية الصينية ، سيكشفون عن مصدر هذه المزايا ، ويكفيني ان اعرف انها كائنة ، وانها تكفل للديمقراطية الجديدة مستقبلاً فريد التألق في سائر الحقول .

غير ان المهمة المتوجب انجازها ، ضخمة . هوذا البلد الذي يضم عدداً من السكان ، يزيد عددنا اثني عشر او خمسة عشر ضعفاً ، والذي في الساعة الحاضرة ، لا ينتج من الفولاذ بقدر ما تنتج فرنسه . والمهم في نظره هو تطوير الصناعة الثقيلة تطويراً سريعاً ، بغية تجهيز البلاد .

ان عدد السكان العاملين سيتضخم كثيراً . ولن يؤمن غذاؤهم ، الا اذا سمح ارتفاع مردود الاراضي بنقل

فائضات مهمة من الغلال الزراعية ، الى المدن .

ويجب ايضاً تطوير وسائل المواصـــلات والخطوط الحديدية والطرق .

كل هذا سوف يتم بفضل الحمية الشعبية ، لان الذي يهم قبل كل شيء في الصين ، انما هو التعبئة التي تحققت من مجموع القوى الخلاقة الكامنة في الشعب .

ودائماً وابداً ، كان الناس هنا ، يرمزون بعبـــارات مؤثرة إلى روح عصر معين أو وقائع سياسة معينـــة ؛ وكانوا يقولون ان سياسة اليابانيـــين ، كانت ترتكز على « كل مثلث » :

حرق كل شيء ...
ونهب كل شيء ...
وقتل كل شيء ...

فيما اليوم ، يتحقق تطور العهد الجديد ، تحت شـارة « حب مخمس » :

حب الوطن ...
وحب الشعب ...
وحب العمل ...
وحب العلم ...
وحب الملكية العامة ...

وقد استطعنا ان ندرك ان هـذه الكلمات تعيش بين جمهور الكادحين .

وينبغي هنا ، الاشارة الى الجهد العجيب الذي يعلقونه على ملاكات النظام الجديد ، وبصورة خاصة ، على مناضلي الحزب الشيوعي الصيني . وليس بسهل البتة ، الحصول على كثير من المعلومات حول هذه النقطة ، في غضون رحلة ، كالتي قمنا بها ، ذلك لان الرجال المعينين ، هم على بساطة خارقة . لكن الامر الاكيد ، هو ان هذا العجين الكبير الذي يتألف منه الشعب الصيني ، لا يمكن ان يختمر الا بواسطة خمير عظيم .

لقد نشأت الدوافع المحرضة ، ولن تتوقف الحركة ابداً والذي يزجي اليّ اليقين هو على وجه الخصوص ، واقع كون الاشخاص الذين نلتقي بهم هناك في كل مناسبة ، يبدون بالغي القلق ، لنيل الانتقادات ، بغية تحسين عملهم .

وفي نهاية زيارتنا لشنغهاي ، دعانا مدير الخطوط الحديدية الذي الحق بنا خصيصاً ، في نهاية حفلة وداعيــة رائعة ، لانتقاد عمله . وقد استحال علينا ان نقول كلمة بهذا الصدد . وخرجنا من هذه العثرة ، ونحن ندندن باغــاني فرنسية جديدة ، جد مستحبة لدى اصدقائنا .

من هذه الذكريات ، لا يمكنني الا ان انحى باللائمة على المصادر التي حملها بول كلوديل ، حول ما اسماه : « بالطابع الصيني » .

فمنذ زهاء خمسين عاماً نشر مقالاً حول الصين قال فيه : « الافراط ، والصلف الفريد ، والكبرياء الشامخ ،

وحب الذات الخانق ، هذه جميعاً تكوّن اعمّ ، واخطر سمة في طبع الصيني ...

« فالصيني لا يعترف صراحة بخطأ او بذنب يرتكبه ، او نقص اياً كان ... وهذا هو السبب الرئيسي ، الذي يعترض كل تقدم رزين في الصين . » .

ان الحاضر ليعترض على هذه الاحكام القديمة ، بمنتهى الصراحة ، ويفندها تفنيداً قاطعاً . ولكـــن ، ليس من الصعب البتة فهم موطن الخطأ لدى الكاتب الفرنسي . انه يشبه الشعب الصيني ، بطغمة الاسياد ، والادباء المتغطرسة ، التي كانت تسيطر على هذا الشعب سيطرة تامة في السابق ، وينزل ما هو بالفعل نتيجة وضع اجتماعي ما ، منزلة طبـع اصيل دائم في جنس بشري . انها مخزاة المؤرخين المألوفة .

فالذي كان لا يرى في مئات الملايـــين من الفلاحين الصينين ، سوى قطيع مبتـذل ، ويرغب عن الاهتمام الا بكبار الموظفين والاقطاعيين ، لم يكن في مقدوره ، منذ خمسين عاماً ، ان يتنبأ بالذي سيحدث في هذه الامبراطورية الشاسعة .

والآن بعد ان نفض الشعب الصيني عن كاهله الانيار التي كانت تسحقه ، يظهر للملأ ما هو كفؤ له .

وانه ليعنينا الان ، ان نرفع الصوت عالياً ، مطالبين بحق اقامة علاقات تتبعها مبادلات وصداقـة ، تكون في مصلحة بلادنا ، ومصلحة السلم في العالم .

هنري دنيز

- ٢ -

الثقافة الصينية

الذهب هو دماء الآخرين

لو ان لنا عيوناً حتى لا نرى ، واذاناً حتى لا نسمع .
ولو ان زاوية الشارع كافية لاخفاء بؤس البعض منا ، عنا ، وذلة الكثيرين منا ، وستر هـذه الرقعة الراكدة ، من الصمت واليأس ، التي نعيش في احشائها ؛ ولو ان المبشرين بالتسامح ، واساتذة الجمود ، على حق ؛ ولو صح ان فرنسة ستكون حقاً ، جنـــة زاخرة بالمتوسط من السعادات العذبه ، وبستانيين لا يتوقون الى سواها ؛ ولو صح ان فرنسة اصبحت ايضاً ، بلداً يقوم فيه كل فرد ، دونما ألم ، بالدور الذي خصته به عناية الهية .. لان نظام العالم ، يقضي بان تكون شوارع المدينة للبعض ، وسط بطـالة وتبلّـد ، وللبعض الاخر ، مساحة يجب تكنيسها .. لانه ينبغي ان يكون لكل درجته ... وان تكون درجة البعض ، خدمة الماكينات ودرجة الاخرين استخدام الماكينات ؛ ولو صح ان خلق دولة ، يستلزم بالضرورة ، كل شيء ؛ وان في كل وجود اقوام تخلق لتنجز مهمات حقيرة ، وطغمـــة تخلق لتنعم بالملذات الخالصة ؛ ولو صح ان احداً منا لم يكن بمقدوره حقاً ، ان يفكر بالتأسف على مصيره ، لولا ارواح مجرمة

لها من الجرأة ما يجعلها تميط اللثام عن العوز للمعوزين ، وعن الاستثمار للمستثمرين ، وعن الاهمال للمهملين ؛ ولو ان البعض مخطئون في شكايتهم ، والاخرين على مثلهم من شكاية الاولين ...

اذن ! لو صح مذهب أولئك الذين يزعمون ان الجيد هو دائماً عدو للخير ، وانه سيكون دائماً ثمة ابناء « ست وابناء جارية » ، وان حالة كل منهم ، هي مع ذلك ، جيدة ، فان هذا المذهب سيكون ايضاً ، اكذوبة مطلقة .

ان صورة لفرنسه ، لحمتها وسداهـا ، بستانيون كانديديون ، (١) واصحاب مداخيل صغـار ايضاً ، وملاكون صغار ، وسعادات محدودة ، وحكمة صغيرة ، لهي صورة خاطئة . وان صورة لانكلترا يتناول فيهـا الجميع قسمتهم بعدل من الشاي ، والمشروب ، واللحم ، واللعب ، لهي صورة خاطئة ؛ وان صورة لامريكا الشمالية ، ينعم فيها الجميع بالعدل ، ببراد وماكينة غسيل ، وسيارة وجهاز تليفـيزيون ، فهي صورة خاطئـة . وان صورة لايطاليـا تلتمع فيهـا الشمس للجميع ، وتشرق بتجرد على القمصان الحريرية للبعض ، وعلى الاثواب المهلهلة للبعض الآخر ، لهي صورة خاطئة .

ولكن ، هب الصور هذه صحيحة ، فالاستنتاجات التي

---

(١) كانديديون : نسبة لكانديد ـ Candide ـ بطل رواية لفولتير ، بهذا الاسم ـ المترجم ـ

يستخلصها مثبطو العزائم ، والمتوانون ، ستكون ايضاً غير مقبولة .

ولو ان جميع اهل الغرب اكلوا لدن جوعهم ، وعاشوا حتى نهاية اجلهم الطبيعي ، وتنشقوا الحرية ، وتأملوا بتعقل ، فإن هذه السعادة الخاصة ، ستكون على حساب جوع وبؤس ويأس ثلثي البشرية الباقين . وعندما نعلم ان عشرين مليوناً من الهنود ، قد ماتوا جوعاً ، خلال الثلاثين سنة الاخيرة ، فيما مرفأ كالكوتا كان يصدر ملايين الاطنان من الحبوب – وعندما نعلم ان فرنسياً يولد عام ١٩٠٠ ، لا يعيش خمسة وخمسين عاماً ، الا في ثمانين بالمئة من الحالات . وان صينياً صغيراً ، في الفترة نفسها ، لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، في خمسة وتسعين بالمئة من الحالات . وعندما نقرأ ما خطته براعة الامريكي ويليام فوغت ، العالم بالجغرافية السياسية ، حيث يقول :

« ثمة قليل من الحظ في ان يأمن العالم هول مجاعات الصين الطويلة ، في السنوات القادمة . ولكن هذا بالقياس للعالم ، ليس مرغوباً فيه وحسب ؛ بل ضروري – كتب هذا عام ١٩٤٨ – » .

عندما نعلم كل ذلك ، كيف لا نعمل الفكرة ، امام هذا التقسيم للعالم ، الذي يجعل من كل منكوب منا ، صاحب امتياز ، بالقياس لسكان آسيا ، وافريقيا ، وامريكا الجنوبية . بل كيف لا نفكر بكلمة الملك ريشارد الثاني ،

في رواية شاكسبير ، مقارناً حالته بحالة خصمه السعيـــد ، وحاسباً الحياة اشبه :

« ببئر عميقة ، فيها دلوان ، يمتليء الواحـد منهما تلو الآخر : الفارغ منهما يهـتز في الخواء ، والآخر ، في القاع يغور ويمتليء مـاء . ان الدلو الذي في القاع ، والمليء بالدموع ، هو انا ، المشبع بالآلام ؛ والدلو الذي يصعد ، هو انت . » .

ان ما يمتلكه الفرد في الاقتصاد الاشتراكي ، لا يأخذه من سواه . اما في النظام الرأسمالي ، فعندما يصعد لاحدهم دلو الشبع والرفاهية ، يهبط بالقياس للاخرين ، وبلا شفقة دلو الدموع والجوع ، وليل أولئك الاحياء الذين لم يكونوا منذ ولادتهم ، حتى الارماس ، سوى اموات تأجل دفنهم . فلو لم تكن الرأسمالية ، تحت اعيننا بالذات ، هذه الفوضى الفاجرة الطاغية ، المنشورة طواعية ؛ ولو لم تكن الرأسمالية هنا ، على كوكبنا ، المصدر الدائم للقلاقل ، والمذابح ، والحروب . ولو انها تمكنت من تحقيق ضماننا ، وسلمنا ، وانسجامنا ، فلسوف تكون ايضاً نظاماً رهيباً من النهب والسلب ، وطريقـة المداورة التي استشفها « شمفورت » عندما قال :

« الفقراء هم عبيد اوروبا .. »

و « ليون بلوا » عندما قال ايضاً ؟

« الذهب هو دماء الآخرين » .

وستكون ايضاً ، النظام الذي هتك لينين حجاب مبادئه للابد ، في نظريته عن الاستعمار .

ان اسمها هو : الفجر

ان المسافر الذي يؤوب اليوم من الصين ، يستطيع ويجب ان يقدم بادىء الامر جواباً رتيباً عنيداً ، على الاسئلة التي يطرحونه بها . يجب عليه ان يقدم جواباً رتيباً كالواقعية الصينية اليومية ، وعنيداً كعزيمة الشعب الصيني .

واذا ما سئلت عما رأيت هناك ، فقبل ان اجيب الذين يطرحون عليّ الاسئلة جزافاً ، حول اعمال الافيون الكبيرة وحول الثقافة ، والفيضانات ، والرسم الصيني ، والمركبات الخفيفة . قبل ان أجيب على الاسئلة ، الكبيرة منها والصغيرة الفضولية ، لا استطيع الا ان اردد على نحـــو ما ردد الاستاذ دينز ، وما يردده جميع اولئك الذين زاروا الصين ، من انني شاهدت هناك ، اناساً كانوا جائعين ، واليوم يأكلون ..

وشاهدت اناساً ، كانوا مقرورين ، واليوم يملكون سقفاً وناراً ..

وشاهدت اناساً ، كانوا عاريين ، واليوم يلبسون ..

وشاهدت اناساً ، كانوا يلزمون الصمت واليوم ينطقون ..

وشاهدت اناساً لم يتعرفوا البتة بهـــذا الشعور الذي يسمونه الامل ، واليوم يأملون ..

وشاهدت اناساً ، كان مقضياً عليهم بالموت المبكر ، لسوء معيشتهم ، وهم اليوم مهيئون لان يمتد بهم اجلهم ، بعد ان عاشوا حقاً ..

وشاهدت هناك ، اناساً كان مسكنهم الحقير ، تبكيتاً لنا ، وكان جوعهم ابن جريمتنا ، وكان املاقهم والتخلي عنهم ، اشبه بشظية حادة في لحومنا . . .

لقد شاهدت هؤلاء الناس جميعاً يبتسمون لمصيرهم ولاخوانهم .

وإذا سئلت : كيف حالة الصين في منتصف هذا القرن فاني اعتقد بان لي الحق ، في استعارة كلمة جيرودو ، في نهاية مأساة ايليكتر « ELECTRE » ، لأقول :

« ان لها اسماً رائعاً ؛ ان اسمها هو : الفجر . . . » .

ان النهار الذي يستوي شبابه اليوم في الصين ، لا يطلع فقط لعشرات الملايين ، الذين ، منذ الاصلاح الزراعي والثورة الديمقراطية ، واولى تطبيقات الأشتراكية ، يحققون هناك ، من يومـذاك حيـاة احسن ، ويعللون انفسهم بمستقبل زاهر .

والنهار الذي يونع ويرتفع في الصين ، انما يونع ويرتفع لنا ايضاً . لأن حالة هذه الخمسمئة مليون من الناس ، هي حالتنا ، وان يكن لنا بهم علاقة طفيفة في الظاهر .

فكل مرة يتوقف فيها امرؤ عـن ان يكون رأس

ماشية في قطيع المستعبدين ، ليصبح انساناً حراً في جموع الظافرين ، وفي كل مرة يستقل امرؤ من حالة العبد ، الى وضع فاتح للسعادة ، تكون اكتافنا هي ايضاً قد تنصلت من عبئها من جهة ، ومن جهة اخرى ، تكون حريتنا هي ايضاً قد نفضت عنها قيودها ، انه من ناحيــة يصون سعادتنا ممن يهددها وينكرها .

ولكن ، بما ان الصين ، هي هــذا الفجر الذي يشع على اولئك الذين كانوا يدلجون في الليل ، فان هذه القارة من الناس ، الذين كانت اغلبيتهم البارحة ، مقصومة الظهر او ساجدة على ركبهــا ، وهاهم اليوم وقوف . فهـــل بقدورنا ان ننسى الأضواء العريقة في القدم ، التي يبقى العالم مع ذلك مديناً بها للصين القديمة ؟ وقد يدخل في الروع بعض التبلد والتسافل ، بان الكثير مـــن المثقفين الغربيين المتحدثين عن الصين ، لايقبلون ان يقطفوا منها سوى ثمار نادرة ، جد ناصعة ولذيذة ، هي ثمار بطالة امرائها ، وعبقرية فنانيها ، وحذاقة حرفييها .

ولكن ، أيجب علينا ان نجهل هذه الثمار ، وان نمقتها ؟ ان رجال الصين ، منذ اربعة الاف سنة ، قد قدموا لنا بعضاً من اروع صور ، عكس فيها الانسان نفسه والطبيعة ، واعطوا حصاداً عجيباً من الشعر ، والرسم والفلسفة والحكمة . وقد وضعوا في الوقت المناسب ، بعضاً مـــن الحصيلات الاكثر رفعة ، التي تمخضت بها الانسانيـة ، لتنظم علاقاتها

مع الاشجار والسماء ، مع اشباهنا وعواطفنـا ، مع مجتمع الاحيـــاء ، واستمرار الاموات .

لقد تركت لنا الصين القديمة بالفعل اساليب الاسترقاق وطرق الغزو ، مع ثقافة كانت في الغالب اداة استبداد ، وفناً كان غالباً ، نصير الطغيان ، وشريك الاستبداد . غير ان صين العصر الغابر ، شأنها في ذلك شأن اليونان القديمة ، قد خلفت لنا كنزاً من الاسئلة الفريدة ، المطروحة بعناية ، مع اجوبة صائبة اورثتنا الفن العجيب في ان نحتاط لضروب المخاوف الحاطة من قدر النفس ، وان نجابه القوى التي تحقق سعادتنا بوصفنا بشراً .

وكما يقول بول ايلوار ، من ان الشعر والثقافـــة لا يخلقان الشاعر وقارئه ، ولا يأتيان :

« بدون قليل من البطالة ، وقليل من التوقف .

بدون فترة انتظار اختيارية ، بدون تبصر وتفكير . »

فانه لبعيد عن الصواب ، طرح سؤال عما اذا كان استيقاظ الناس الصامتين ، الذين شاهدناهم ، لا يهدد بالخطر نتاج أولئك الذين يتقنون الكلام النسيق النميق . وعما اذا كان الانتصار على الجوع ، الذي احرزته مئات الملايين من البشر ، لا يطرح على بساط البحث ، الانتصارات على الفوضى التي احرزتها بضعة آلاف من الرســامين ، والنحاتين ، والشعراء ، والحكماء . غير ان هذا سؤال يطرح علينا كل يوم ، وهو ليس ابن البارحة . فمنذ فجر

الثورة الفرنسية ، كان المدافعون عن نظام للامتيازات ، يؤكدون ، انه ، اذ ما كانت ثمرات هذا النظام ، خبزاً اسود ، وحياة سوداء ، وموتاً بطيئاً للبعض ، فهي ايضاً روائع الهندسة ، والرسم ، والمسرح ، والموسيقى ، للبعض الآخر .

ان فلاسفة الارستقراطية يؤكدون ان بؤس الفلاحين الذي وصفه لابروبير – La Bruyère – وضربات العصي الاستقراطية التي كانت تصيب فلاح القرية ، وبورجوازي المدن على السواء . وتصيب الفلاح مارتن والشاعر فولتير ؛ وان الاضطهادات والجزية ، لا تعلو في كفة الميزان وزناً على فرساي ، وبوسين ، وكورين ؛ وان بيرينيس – Bérénice – اخيراً ، تبرر الباستيل .

وعلى هذا اجاب شمفورت بقوله :

« يجب ان نعتبر ، ان شراء مآسي جميلة وروايات هزلية ، وحسنة بمقابل جميع الالام التي ترافق الرق المدني والسياسي ، انما هو ثمن غال لمقعد من مقاعد النظارة . » .

لكن الاختبار الذي اعطيناه على هذا النحو ، وهذا الميزان الذي ارادوا نصبه بين ارستقراطية الفن وديموقراطية السعادة ، بين انتصارات خاصة بافراد ، وانتصار الجماهير العام ، فالتجربة التاريخية تبين لنا ان هذا الميزان ليس الا سوق نفاق ، واختيار بلهاء . ان رجلاً تصرّم حبل

حياته بين التأمل بفشله ، ومرارة انهزامه ، وهو المغامر والكاتب ، لورانس ، قد طرح على نفسه مسألة في التأمل ، بلهاء ومتوحشة معاً . وقد تساءل قائلاً :

« اذا ما خيرت بين تقويض كنيسة نوتردام ، وبين قتل فتاة صغيرة تلعب بدولاب في ساحة الكنيسة . فماذا عساي أفعل ؟ « أأختار تقويض الكنيسة ام قتل الفتاة ؟ » . انه لبرهان ذو حدين ، رهيب بقدر ما هو مفتعل ، برهان نأبى حتى ان نطرحه على انفسنا . فليس لنا ان نختار بين نقص الاحياء ، وكمال الحجارة ، بين جمال الاثر الفني ، وهشاشة اللحم البشري ، بين كاتدرائية ، وطفل . فالكتدرائية تفقد معناها ، اذا لم يعش ويلعب احد في ظلها . وروائع الفن ، هي بنات الانسانية ، مثلما الاطفال الذين يلعبون هم ابناء الشعوب التي تكدح . ان الاثنين معاً ، هما ابناء الانسانية .

الفن في سبيل الحياة

قبل ان نتساءل عما اذا كانت الثورة التي تحققت في الصين ، على مرأى من اعيننا ادت أو سوف تؤدي الى ضرر في تفتح ثقافة صينية ، ذات تقاليد مغرقة في القدم ، واخصاب بيّن . وقبل ان نتساءل عما اذا كان رسامو عصر ماوتسي تونغ اكفاء أو سيصبحون كذلك ، لرسم عصر

الامبراطور تاي تسونغ ، يجب ان نتساءل قبل كل شيء : اين يتجه جهد الشاعر والرسام ، وماذا يجدي الفن والكتابة والفلسفة ، والممارسة الكاملة للتعبير والصور . ما شأنها جميعاً اذا لم تكن صلة اتصال عميقة قـدر الامكان بين الناس . وما قيمتها اذا لم تهدف الى تخفيض وازلة العقبات التي تفصل بعض الناس عن البعض الاخر ؟ قد يوجد ثمـــة فنانون يمارسون فنهـم على نحو ما يفعل « لاعبو الورق » او البلبوكيه (١) ، ومواهبهم ليست سوى مواهب اجتماعية ، مواهب مجتمع ما ، الى ابعـد ما لهـــذه العبارة من حد . لكن الموهبة الحقة ، والعبقرية ، هما فن تكـيف الحياة الاجتماعيـــة ، وانجاز المجتمع البشري واكماله . وكما ان الخط المستقيم هو اقرب طريق من نقطة الى اخرى ، هكـذا النتاج الفني بصورة خاصة ، والثقـافة بصورة عامة ، ليسا سوى اقرب الطرق الـتي تفضي بالمرء الى اشباهه . ولكن ، كيف لا يخامر اليأس انبـغ العباقرة ، ويلقي في عقله زهو مشروعه ، عندما يعلم ان هذا الفن يبقي بالقياس للاكثرية الساحقة ممن يحيطون به ، رسالة ميتة ؟ فبين الرسام الذي يأمر بلوحته أو برقه ، روعة فترة ممتازة ، وضياء منظر طبيعي ، او جمال وجـــه ، وبين الفلاح الذي ، منذ ما يولد حتى يموت ، يتبع ذات الطريق

(١) البلبوكيه : لعبة خشبية مركبة من كرة مثقوبـة ، يصلها حبل رقيق بقضيب ، احد طرفيه حاد والاخر اجوف — المترجم —

الرتيبة التي يجتازها الثور الاعمى ، المكـــدون الى عجلة الناعورة ؛ وليس بينهما المسافة التي تفصـــل المبصر عن الاعمى ، والسامع عن الاصم وحسب ، بل هنـاك تلك المساحة الشبيهة بالموت ، والتي تسمى الغباوة . لقد كان وما زال ثمة مدافعون عن الغباوة ، المقدســة الطيبة . مدافعون عن هذه الغباوة ، التي يقال بانها ستصبح بركة . وستكفي الناس شر الكثير من الاوصـــاب والمصائب ، يثرثرون بان ثمرات المعرفة ، ستجلب الى الشفاه من المرارة بقدر ما تجلب من نضارة .

لكن هؤلاء الجهابذة الذين يعظون الاخرين بالجهـالة . هؤلاء الأدباء الذين يبشرون الاخرين بالامية ، يجهلون او ينكرون حقيقة جد بسيطة ، وهي ان الغباوة هي غباوة الناس فيما بينهم ، وهي في الأصل وحشة ؛ وان الغبي لا يجهـل ان ثمة قوانين للعلم ، وجمالات للفن ، وذروات للفكر ، واحداث للتاريخ ، وحسب ، بل يجهل قبل كل شيء ، ان له ثمة اشباهاً . وأخيراً فان الغباوة لا تحل مسائل الانسان الذي يتخلون عنه ، الا مثلما يحل الموت حشرجة المحتضر بالصمت المطبق ، والليل المطلق .

الزرع الكبير

ان الصين اليوم تعرض لمشاهديـــا اكثر من ضرب واحد من ضروب البطولة . وعندما أفكر بالذين التقيت بهم

هنـــاك ، تصعب علي معرفة أي اسلوب عظيم اباشر به الكتابة . ولكن ، اذ وجب عــلي الاقتصــار على وجه واحد من اوجه البطولة ، فسيكون وجه الذين يصارعون غول الغباوة المريع ، وقد صادفتهم في كل مكان ، هذا الوجه الذي رغبت في تمجيده .

انهم طلاب تلك المدارس الرسمية المفتوحة الابواب منـذ التحرير ؛ هؤلاء الطلاب الذين تضاعفوا تضاعفاً هامــاً . وحيث الحكومة الشعبية تأمـل في تكوين مليون ونصف المليون من هؤلاء المعلمين ، الذين يفتقر اليهم ثلاثون مليون طفل صيني ، خـلال خمس سنوات . أنهم تلامذة تتفاوت اعمارهم بين الخامسة عشرة والثمانين سنة ؛ في هذه المدارس الليلية او الشتوية القائمة في المصانع ، والمشاغل ،والورشات والمعسكرات ، والقرى ، حيث الوجوه تشرأب لتفوز بهذا المدى الجديد للحرية ، والذي يدعى القراءة والكتابة . انهم المدرسون والطلاب ، والمثقفون ، الذين يذهبون للاشتاء في القرى ، وفي الورشات الكبيرة ، ليلقنوا اخوانهم ما لديهم من معــارف ، ويتقاسمون ثرواتهم ، ويقدمون ما حصلوا عليه . انهم رجال افذاذ ، عظام ، متواضعون ، ما زلت احتفظ بذكرى حية عنهم : هي ذكرى اعظم بناة جسر عرفتهم الانسانية . لان هؤلاء هم الذين ينصبون جسراً من ماضي الصين الى مستقبلها ، من ثقافة اصحاب الامتيازات ، الى ثقافة كل فرد . اولئك الذين يجعلون من رسالة التراث الميتة ،

رسالة حية للاقتسام ، ويسمحون للجميع بالارتواء من المنهل الذي اكتشفه البعض منهم . وتبعاً للمثل الذي ضربه الاتحاد السوفياتي ، تعمل الصين الحديثة على تنفيذ مهمة لا سابق لها مطلقاً .

لقد استطعنا ان نرى الدول المستعمرة تفتح بفطنة وتقتير مفرط ، للبعض من مستعمراتها ، حرم الثقافة وباب معرفة ما . ولكن كيف ننكر ان ثمة فارقاً ، ليس بالكمية وحسب ، بل بالنوع ، بين تكوين ما يطلقون عليه بشكل من الاستخفاف الرهيب ، ولون محسوس من الحذر ، اسم « النخبات الوطنية » ، وبين اعظم واول عمليات لبذر الثقافة ، في اعمق اعماق الشعب الذي يفوق الحصر ؟ فالذي حصل على العلم في نظام تعليم غير متساو ، هو الذي يختلف عن الآخرين . لكن النظرة هذه تهزل وتضمحل عندما يصبح العلم ملكاً مشتركاً ، كما هي الحال في الصين .

وعلى هذا النحو ، يتحقق في الصين ، في منتصف هذا القرن ، التمني الذي كان ستاندال – Stendhal – يوضحه في منتصف القرن الماضي . حيث يقول :

« اذا ما زرعت شجيرة في وسط غابة كثيفه ، محرومة من الهواء والشمس ، بسبب جاراتها ، فستذبل اوراقها ، وسيصبح شكلها مشيقاً مضحكا لا يشبه الشكل الطبيعي في شيء . يجب ان تغرس

الغابة كلها في وقت واحد ».

ان رجال الصين الجديدة ، يغرسون في هذه الفترة ودفعة واحدة ، الغابة الشاسعة للانسان الذي سيعلم . انسان مجتمع ، لن تكون فيه المعرفة مدعاة للتباهي ، بل مجلبة للكرامة ، ولا تظل فيه الصحة والراحة ، امتيازاً ، بل شيئاً مشتركاً بين الجميع .

واني لأتوجه اليكم ايها المثقفون الفرنسيون ، الى الذين ما زالوا منكم مقيدين باغلال الشك ، وسجناء السخرية . والذين تضحكهم امكانية ثرثرة الاطفال والشيوخ ، تحت خيام كيرغيزيا او منغوليا ، متمتعين قراءة الابجدية ، بوصفها حدثاً تاريخياً لا سابق له . والذين تضحكهم ايضاً امكانية القول بان عمراً جديداً للعالم يبدأ ، لان رعاة قبائل ماو ، وناقلي اغراس الارز في الصين الوسطى ، وعمال المرافيء في شنغهاي ، ومعدني موكدن يحاولون باصابعهم المقرورة ، وباظافرهم السوداء ، وايديهم الكابية ، ان يرسموا على دفاترهم ، حروف لغتهم ، والرموز التي غنتها اقلام شعراء العصر الغابر . ولكنني على ضحكهم الماكر ، وعلى هزّ اكتافهم ، افضل حسرة ، سنت اكسيبيري — Saint—Exupéry — عندما كان يتأمل طهارة وجه طفل بالقرب من والديه الفقيرين المدقعين ، الواقعين فريسة للبؤس . وقد هتف ، وهو امام وجه الطفل الغريب البهي يقول : « هذا وجه موسيقي ، هذا هو وجه الطفل موزارت.

هذا وعد للياة جميل . ان امراء الاساطير الصغار ، لم يكونوا بمختلفين عنه في شيء ؛ فماذا عساه يصبح اذا ما حمي واحيط بعناية ، وعلم ؟ فعندما تولد في البساتين وردة جديـدة ، يهتز لها جميع البستانيين . ولكن ليس ثمة بستانيون للبشر . ان الطفل موزارت سيقصم ظهره مثل الاخرين ، قبل ان يعجم عوده . لقد قضي على موزات . »

ولكم كنت اتمنى لو ان ، سنت ـ اكسيبيري ، لما يزل حيـــاً بيننا ، لاصطحبه في رحلة من سيبيريا حتى كنتون ، واغرقه في هـــذا الحصاد العجيب من الوجوه النبيهة المؤثرة ، في تلك المرانة العظيمة التي تمارسها ملايـين الناس بفضل ازدهارها .

وان اقول له : « لم يبق ثمة وجود لموزارت ، مقضي عليه ، بل ثمة بستانيون يعتنون بالناس » . وذلك العامل العجوز من شنغهاي ، الذي رأيته يتعلم القراءة في الكراريس المصورة البسيطة الواضحة ، التي تطبـع في الصين بعشرات الملايين من النسخ ، والذي كتبت لي واحدة من صديقاتي في الاسبوع الماضي ، تقول بانه ابتاع مجموعة منتخبات من الشعر الصيني ، المنشور حديثاً في بيكين . وقد شاهدتـه يقرأها ، والدموع في عينيه . وقد علمت انـه لم يخسر ، بل ربح كثيراً من اجتيازه الليل الى النهار ، وانتقاله من الجهالة الى تهجية كتاب الثقافة الانسانية العظيم . واني اعلم ان ابنه غداً ، قد يكون الذي سيضيف صفحة الى هـذا

الكتاب الجليل ، وان العبقرية اذا ما هجعت في هذا الطفل الصيني ، فانها مبدئياً لن تنطفيء ، قبل ان تتمكن من فتح عينيه .

هذا هو المهم ، وهذه هي عظمة ، كانت حتى البارحة لا تدخل في بال ، وهذا وعد كان حتى الامس وهمياً ، وهاهو اليوم يتحول الى حقيقة واقعة . وهذا ما يجب ان نقوله دونما حرج ، وقد عنيته في موضع آخر . اني لا ارى فقط قيمة المجهود الانساني ، ونكران الذات وتفاني هؤلاء الرجال ، الذين نذروا بالفعل النفس منهم والجسد ، لاجل هذا البذر الاسطوري في النفوس والقلوب . ان نشر القراءة في الصين ، ليطرح اسئلة بالغة التعقيد : فلنتصور الصعوبة التي تعترض تعليم قاعدة الكتابة لملايين الناس البسطاء ، والقضايا التي يثيرها في الصين ، وجود لغة ادبية كلاسيكية ولغة عامية ، تنقسم هي نفسها الى كثير من اللهجات . ان الحذق ، والذكاء ، والدقة ، المعدة لحل هذه المسائل ، لعجيبة وخارقة .

الصين مرقاة لغزو السماء

بيد ان ثمة مظاهر اخرى لهذه الثورة الثقافية العظيمة . واني لراغب بالغ الرغبة في اطلاعكم عليها . لقد حاولت ، بالتالي ، ان اصف كل المسارح ، ورقصات الفلاحين ،

واخوة المثقفين ، ورجال الشعب ، وكبار كتاب الصين العصرية ، الذين يجدون في الثورة توسيعاً لافاق الهامهم .. ابناء الشعب المبدعين أولاً ، الذين بـــدأوا يظهرون ، ويؤكدون ذاتهم . وقد تمنيت ان آتي على ذكر هـذا الاختيار الاخلاقي والثقافي ، الذي يعد الصين بنهضة باهرة . وحاولت جهدي ان اقدم بيانـاً عن الافادات الكثيرة ، والخسائر الحتمية التي رافقت تحرير ربـع الناس الاحياء ، وعن المفاخر التي قامت الصين باعبائها ، والمخاطر التي انتابت الصين الشعبية الجديدة ، على صعيد الثقافة .

ان اولى حاجات الفنان هي اولى حاجات الانسان ايضاً. فالفنان مثل الجميـع ، بحاجة الى الخبز والحرية . ويزعمون ان الصين ربما تكون فقدت مع الثورة ، حريتها ، لانها تخلت عن نظامها الفوضوي ؛ وهذا قول لا يؤبه له . وسيصبح من السذاجة والعجب الاعتقاد بان الازهار في بساتين الناس تنبت باكراً ، وان بالمستطاع ارغامها على ذلـــك ، دونما ضرر ، والتضييق عليها دون ان تذبل . ان البستانيين الاقحاح يعرفون فضائل الصـــبر ، وضرورة الاحترام . فالكتاب ، والفنانون ، والعلماء ، والفلاسفة ، لا ينتجون تحت طائلة التوجيه ، بل ينتجون لانهم اعطوا التوجيه ، وقد اتخذت الصين الجديدة بقضها وقضيضها وجهة الحرية ، وجهة الشمس . ان الكتاب والفنانين ، والفلاسفة لاينتجون الروائع البتة بموجب قرارات ، بل لانهـــم يعيشون

ويشعرون باتحاد شعبهم رأياً ومراماً ، وبتقياس امل وهمة الجميع ؛ والصين الجديدة هي خمسمئة مليون رجل ، انتفضوا ليستأصلوا شأفة النكبات التي كانت تسحقهم جميعاً .

فالكتاب ، والفنانون ، والفلاسفة ، ليسوا بحاجة لتسلم الاوامر ، بل بحاجة للشعور بان العالم حولهم ، هو بسبيل البحث عن نظامه . والصين الجديدة ، هي بسبيل توطيد نظام العدالة ، نظام الحقيقة الانسانية ، وليس الكتاب والفنانون والفلاسفة هم الذين تحملهم الكلمة او العمل الخلاق الى هناك خارج الانسانية التي تغمرهم ، بل الذين يشعرون عميق الشعور ، انهم لسان حال هذه الانسانية التي مهمتها حمله ليحملها ، ثم يقودها في معارج التحرر والسعادة . والصين الجديدة هي اندفاع طاغ للشعب الذي يتشامخ لغزو السماء .

اما ما يجب التعليق عليه في المشروع الصيني الحالي ، فهو حقيقة وخصب المفهوم الثقافي ؛ الذي لا يجعل من هذه الثقافة ، ملكاً لقبضة من الموسرين ، كما كانت الحال في الصين القديمة ، بل يجعلها خبزاً للجميع . ان كبار المثقفين الصينيين الذين شاهدتهم، يغوصون بإباء في خضم حياة الفلاحين ، خلال اشهر طويلة ، قد اخذت سهولتهم في التعبير ، ووضعهم الطبيعي بمجامع حواسي .

وقد استجاب المثقفون الصينيون بحرارة لنداء ماوتسي تونغ الذي رسم لهم كمهمة اولية ان يكونوا : « ثور

البروليتاريا ، والشعب ، والجماهير » ، وكفريضة مستعجلة ان : « يقدموا النجم للمقرورين » لا كالاسطورة الصينية القائلة : « باضافة الزهور الى سجادة فاخرة » . بيد ان احداً منهم تقريباً ، لم يبد استياء لكونه اصبح في عداد اولئك الناس البسطاء ، السليمي الطوية ، الذين شوهدوا في فرنسه مثلاً ، زمن بطولة الجامعات الشعبية من قضية دريفوس ، يسعون « الى الشعب » ، للوقوف معه على مستوى واحد ، والتخلي عن اثمن متارفهم ، بغية مقابلة ممثلي هذا الجنس الغريب ، البربري المخيف ، المعروف برجالات الشعب .

الناس البسطاء ! يا لها من عبارة رائعة . ولكن كيف يتفق للبعض ، لدن يسعون بكلمة ، بسطاء ، ان يجول برأسهم كل شيء ، ما عدا الفكرة المذهلة ، فكرة حقيقة البساطة الرائعة . ان البسطاء عند هؤلاء ، هم السذج ، اذا لم نقل البلهاء . وان وضع انفسهم على صعيد واحد مع هؤلاء البسطاء ، انما يعني استحالتهم الى بلهاء ايضاً ، وليس فقط بالمعنى الباسكالي للعبارة ؛ فالوقوف في صف الشعب يعني ، ان يتحولوا بكليتهم الى فارغين خالين . وان يصبحوا ، زوراً وبهتاناً ، جهالاً وساذجين وبسطاء .

ان المثقفين الصينيين اذن ، لا يرتضون بهذا ابداً . انهم يسعون جهدهم ليخاطبوا شعبهم باللغة التي يفهمها هذا الشعب ، ولكنهم لا يسعون البتة في التشبه بأولئك السادة الكبار ،

الذين يشعرون بأن عليهم ان يحدثوا الاطفال باللغة الصبيانية ، اي بلغة البلاهة . انهم يعلمون ان الانسان ، منـــذ ما يخرج من قفص البؤس الابتدائي ، من تلبية حاجـــاته الاولية ، ينتعش بالثقـافة مثلمـــا يتنشق الهواء ؛ وهم متيقظون ويكنون كل احترام لهذه الثقافة الصينية الشعبية الرائعة ، التي تعبر عن نفسها بالرقصات والاغاني ، والمسرح ، والاساطير ، لهذه الثقافة الشعبية التي لا تختلف في جوهرها عن الكلاسيكية الصينية العظيمة ، بكل ما في هذه الثقافة من عظم الصحة والخصب .

ان الكتاب الصينيين يعرفون هذه الاغاني والاشعار ، ويعرفون كيف يصغون اليها ، ويلقونها ، وكيف يتعلمون من الشعب ويعلمونه . ويفهمون عالم الثقافة على انه واحد لا يتجزأ ، مثل سلم يعقوب المديد ، الذي جميع درجاته العليا والسفلى مغمورة بـــذات النور ، وتفضي الى نفس الهدف ، الا وهو : تحرير الانسانية .

بعث التراث الثقافي الصيني

انه لمدهش اليوم التأكيد بأن الجهد الذي يبـذل في الصين لاشاعة الثقافة ، لا يتنافى والتدقيق بهذه الثقافة . وان الاسراع في مهمة حمل الفحم لأولئك المرتجفـين من القر ، لا تحول دون اضافة ازهار الى السجادة الرائعة ،

او تجديد الوان الزهور التي اذبلها الزمن او ذهب بلونها .
وفي اسبوع زيارتنا نفسه ، شوهد في بيكين اول كتاب لجندي
فلاح ، واول جزء من منتخبات ضخمة من الشعر الصيني ،
منذ نشأته ، وهو احد مظاهر المحاولة المدهشة لبعث التراث
الوطني ، التي اخذها المثقفون الصينيون على عاتقهم . وذلك،
لأن من البلاهة الاعتقاد ان بالامكان ازدراء الجماهير ،
واحترام الروائع في آن واحد ، وان الغباوة التي يتردى
فيها السواد الاعظم من الناس ، تستطيع ان تسير وازدهار
الفنون الجميلة جنباً الى جنب .

ان الثقافة الصينية ، كانت بالفعل منذ اكثر من قرن،
بستاناً مقفراً ، لا يدخله احد ، او يكاد . كان
الشعراء يحاولون دائماً تقليد الاساليب المزيلة . وكان
الرسامون يعاودون رسم ذات الرسوم ، التي اصبحت
اكادمية وميكانيكية ، خاوية النفس والحواس . واليوم
يأخذ الشعب الصيني ثانية كنوزه بكلتا يديه . ويغوص
ثانية في معينها العريق في القدم . وفي نفس الوقت الذي
يخطو فيه فلاح اولى خطواته على صعيد فن التعبير ،
ويكتب روايته الاولى ، نشاهد مؤلفات كتاب فتيان
آخرين ، وهم كتاب فتيان ماتوا منذ عشرة او خمسة او
ثلاثة قرون ، ولكنهم تركوا ليموتوا ميتتين : ميتة
ذهبت بارواحهم ، واخرى جعلت آثارهم نسياً منسياً .

إن الحكومة الصينية لا توفر اليوم امكانية الحياة

للمواطنين المعاصرين وحسب ، بل تبعث ايضاً اولئك المواطنين الذين هم العبقريات المجهولة . العبقريات التي كانت تبدو مشاغبة او مخيفة لأسياد الامس الموقتين . انها تبعث هؤلاء ، لان الذي كانوا يقولونه لعشرة او لخمسة او لثلاثة قرون خلت ، يحتاجه رجال اليوم ، لكي يحسنوا حياتهم ونضالهم ، ولكي ينتصروا .

وعندما تذكرت الآن، العامل الصيني العجوز ، الذي اصبح يتقن القراءة منذ سنتين ، والذي يغوص في تلك المجموعة الشعرية ، ادركت انه لا يقدم لنا صورة رجل منسجم مع حاضر شعبه الجليل وحسب ، بل ومرتبط مجدداً بماضي وطنه العميق العظيم ..

ـ يجب ان نعترف بالصين ـ

يبقى ايضاً ثمة عديد من الكنوز الواجب تحليلها ، وكثير من الحجج العجيبة للتوسع بها . ولكن ، كيف السبيل الى ذلك ؟

كنت اتمنى فقط ان احملكم على التعرف على نحو احسن والتعمق اكثر في حقيقة الصين اليوم ، وذلك بأن تذهبوا بانفسكم الى الينابيع التي ما تزال جد بعيدة عن متناولنا . ولدى قراءة الكتب التي ظهرت حديثاً في فرنسه عن الصين ، مع الترجمات الصينية التي بديء بنشرها ، فانكم

لن تكتشفوا شعباً جد بعيد عنا ، وثقافة واناساً مجهولين . انكم على نقيض ذلك ، تكتشفون كنزاً من التجارب الأخوية . والعظم العالمية . وستسعون مثلي ، دون شك ، في متابعة تعرف ضروري وأولي بالصين ، وشكرانها على القدوة والحمية التي تقدمها لنا .

ذلك لأن بمقدور حكومة صغيرة يديرها اناس صغار ، لا يعرفون من الجغرافيا سوى الخط الجوي الذي يقود من باريس الى واشنطن ، ماراً ببون ، ولا يعرفون من التاريخ سوى حديث معاهدات التسليم ، ولا يعرفون الكتابة الا استعطاء وكذباً . انه بمقدور حكومة الاشباح التي تزعم الهيمنة على فرنسة ، الا تعترف بالصين الشعبية ، لانها تنتسب الى هذه الطغمة التاريخية ، التي لا تحسن البتة الاعتراف بأن الأرض تدور ، وان التاريخ يتقدم ، وان الناس يسيرون . غير ان نهاية هذه السخافة وهذا الخزي منوطة بنا في نهاية الأمر . انها منوطة بنا نحن المثقفين بوجه خاص .

ان التعرف بصين الامس ، وصين اليوم ، ليس معناه اغناء النفس والقلب وحسب ، بل هو التعرف ببعض المباهج الانقى ، التي يمكن التعرف بها . ان التعرف بالصين هو ايضاً مساعدة انتصار قضية الحقيقة ، والعدالة ، وقضية السعادة والسلم . ومع ان الاعتراف بالصين يأتي بواسطة الديبلوماسيين ، فان اعتراف المثقفين بها هو مرحلة ضرورية

اولية . وكما ان الارتقاء في فرنسة لم يعـــد ممكناً البتة بدون اختلاق بعض الاكاذيب عن الاتحاد السوفياتي ، لان الاعتراف بالواقع السوفياتي هو آخذ في الانتشار المتعاظم بين ظهرانينا ، كذلك ينبغي ان نعتاض عن الخرافات والاكاذيب والاساطير المنتشرة حول الصين الجديـــدة ، بلمعان الحقيقة الساطع .

كلود روا

-٣-

الصحة والطفولة
في الصين

مسألة الصحة والطفولة

ان اكثر الأنطباعات تأثيراً ، التي يحملها المرؤ من اقامته في الصين الشعبية بضعة اسابيع ، هي توثب الشعب النشيط العامل باجمعه ، نحو المهمات العظيمة ، الواسعة النطاق ، التي توجب عليه القيام بها عقب التحرير ، خير قيام . واصبحت الطاقة المشلولة منذ قرون من الجمود ، والمزايا الفريدة التي منعها نظام استثماري ضار من الظهور تصنع الاعاجيب منذ خمس سنوات ، لدن اصبح الشعب الصيني سيد مصائره .

ولم تكن مسألة الاتيان بحل للقضايا التي يطرحها الوضع الصحي ومسألة الطفولة ، بأقل اهمية من المهمات المطروحة .

وقصدنا الان ، هو معرفة كيفية مواجهة الصين الشعبية وحكومتها لهذه المسألة ، والنتائج الباهرة التي حققها عملها الحماسي العنيد الواقعي .

حب الاطفال : سنة في الصين

الصحة والطفولة : هما مظهران متباينان بالفعل ، لكنهما مرتبطان بشروط حياة الشعب .

ان صحة امة تقاس بمقدار صحة اطفالها . ومستقبلها يتعلق بالعناية التي تبذلها من اجلهم . ان احد مميزات نظام شعبي هي حقاً السماح لهـــذا الحب في ان يظهر الى حيز الوجود . وقد قال أعضاء بعثة طبية الى الاتحاد السوفياتي منذ بضعة سنوات : « الطفل هنا هو ملك . وكل شيء يرخص في سبيله ! » .

ان حب الأطفال ، واهميتهم في الحيـاة العائلية ، هو سنة في الصين . غير ان هذه الأحاسيس المضطرمة ، الرفيعة كانت ترتطم بالواقع الطاغي . فالسواد الاعظم من العائلات الصينية ، ماعدا بعض اصحاب الامتيازات ، كانت تعيش في وهدة من البؤس العميقة ، وكان الاطـــفال اول من يذوق فيها مرارة الالم .

فقبل التحرير ، كانت الشروط الصحيـــة جد محزنة ، لدرجة ان المرأة في الارياف ، كانت تضع مواليد ميتين في الغـالب الاعم ، والذين يعيشون منهم ، لم يكن لهم حظ في بلوغ السنة من اعمارهم ، الا في بعض المناطق !

ولم يكن متوسط امتداد الاجل اكثر من خمسة وعشرين عاماً ، فيما هو عندنا ، اكثر من خمسة وستين .

والى المجاعة التي مصدرها النكبـــات الطبيعية : مثل الفيضانات او الجفاف ، والاستثمار الشنيع من قبل الملاك الاقطاعي ، تضاف الأمراض الفتـاكة مثـــل الجدري ، والطاعون ، والكوليرا ، التي كانت تفتك فتكاً ذريعاً .

فهل نندهش من ان الوالدين ، كانوا في السابق ، مجبرين على قتل اولادهم عند الولادة ، وخاصة الفتيات منهم ، لكي يجنبوهن مستقبلاً ، لا مندوحة لهن فيه من الخيار ، بين العبودية والبغاء ؟ .

كل شيء قد تبدل اليوم . ولكي نقيس المسافة التي اجتيزت ، فلندخل معاً مأوى بلدي في بكين ، اقيم في القصر الشتوي . هناك شاهدنا اطفالاً فرحين ، باسمين ، متمتعين بصحة جيدة يخفون للاقاتنا دونما وجل ، ثم يتشبثون باكتافنا ، ويمسكون بايدينا ، جد مسرورين بهذه الزيارة ، التي يقوم بها « اعمام لهم غرباء » كما يقولون.

قبل التحرير ، كان طبيبان يعتنيان بثلاثين شخصاً ، فيما هما اليوم ، يعتنيان بثلاثمئة شخص .

وهم ايضاً ثلاثمئة شخص ، في مأوى مؤسسة فو-شن ، منجم فحم رئيسي في شمالي شرقي الصين - مندشوريا القديمة - وهو مأوى تحف به الاشجار من كل صوب ، ومكتمل الشروط الصحية ، من حيث ان انشراح الاطفال فيه ، يثلج الصدر .

وذات جو البهجة والحبور مهيمن على المأوى الفلاحي ، في المزرعة الجماعية ، التي زرناها في ضواحي شين ينغ - موكدن القديمة - .

ولندع براعة الارقام المهيبة والموثرة تتكلم : فالمآوي في المدن هي اكثر مما كانت قبل التحرير ، بثلاثين ضعفاً .

وقد قفز عددها من مئة وعشرين الى ثلاثة آلاف وسبعمئة .

وهناك اكثر من الف وخمسمئة مأوى موسمي وتعاوني تابعة للمشاريع في الريف ، وتضم اكثر من ثلاثمئة وثمانين الف طفل . وبالاجمال ، يوجد في الصين اليوم ما يقرب السبعين الف مأوى وحديقة اطفال ، ودار حضانة .

وهذه المأوي تقدم للعائلات مساعدة ضخمة لاجل رفاهية الاطفال ، الذين شارفوا سن الدراسة ، اي الذين تتفاوت اعمارهم بين السنتين ونصف السنة ، والسبع سنوات .

ان الكبار من هؤلاء الاطفال يذهبون الى المدرسة . وهذا تأكيد جد مبتذل في الظاهر ، وفي الظاهر وحسب ، فهؤلاء التلامذة هم ابناء الشعب ، ابناء العمال والفلاحين ، الذين كانت اكثريتهم في السابق ، لا تستطيع الذهاب الى المدرسة ، المخصصة لابناء البورجوازيين ، والفلاحين الاغنياء . وقد كان ايضاً ثمانون بالمئة من الاميين في الشعب الصيني . فيما الصين اليوم ، تعد خمسين مليون تلميذ .

ان المدرسة التي زرناها في بيكين ، قد ضاعفت فعاليتها منذ التحرير . الاطفال الذين يتنزهون ، يقفون ليصفقوا لنا . ودفاترهم مغطاة بتلك الحروف الجد معقدة ، التي يدهش حسن كتابتها . وهم يستمرون في التعليم الأبتدائي مدة ست سنوات ، يتقنون في نهايتها كتابة الفين وثمانمئة حرف مختلف .

في الحقل الصحي

لكن اعظم النجاحات قد تكون ، والحق يقـال ، احرزت في الحقل الصحي . وهذا جدير بان نتوقف عنده قليلًا :

لقد شاهدنا الوضع المتصرم في هذه المـادة . وهذه بعض النتائج الناطقة بافظ ما يكون النطق : الجدري والكوليرا قد اختفيا عملياً ، مع الطاعون الـذي لم يبق له من وجود الا في بعض البيوت المنفردة من المناطق البعيدة . وعدد الوفيات العام ، قد هبط الى النصف . وعدد وفيات الأطفال قد تدنى تدنياً واسعاً . ففي بيكين مثلًا ، قد انخفض من مئة وسبعة عشر الى خمسين ، بالالف مولود .

وكانت نسبة وفيـات النساء الولودات هائـلة : ففي مدينة كبيرة مثل بيكين ، اصبحت هذه النسبة اقل عشرة اضعاف مما كانت عليه قبل عام ١٩٤٩ .

وكانت النساء الحوامل يسرحن ، في السابق . اما اليوم فقد الغيت هذه العادة ، واصبحت النسـاء يتمتعن باجازة امومة ، تتفاوت بين ستة وخمسين ، وسبعين يوماً .

فكيف احرزت مثل هذه الانتصارات ، فـيما كانت الصين ، لخمس سنوات خلت تفتقر الى كل شيء : عتاد ، ورجال . وهي خارجة من غمار حرب اهلية واجنبية ، دامت عشرين عـاماً ؟

لقد احرزت بفضل نضال جميع الشعب ، من اجل الصحة وشروطها . وبفضل قيادة الحكومة الشعبية الحكيمة .

ان اربع قواعد اساسية ، قد قادت كل السياسة الصحية ، خلال هذه الفترة ، للقضاء على الامراض والآفات الاجتماعية وهي : الطب يجب ان يكون في خدمة العمال والفلاحين . ويجب ان يعتبر الوقاية كمهمته الأساسية . ويجب ان يجمع بين الأساليب الحديثة ، والطرق القديمة التقليدية . ويجب ان يرتبط بالحركة العامة من اجل الصحة .

ان الطب الصحي لفي غمرة التطور في الصين الشعبية . فقديماً كان التطبيب بمقدور الأغنياء وحدهم . اما اليوم فالتجهيز الاستشفائي لخدمة الشعب ، ينمو بسرعة مدهشة .

فالبناء الذي يشاد قبالة نزلنا في بيكين — بسرعة عظيمة رغم فقدان الطرق الحديثة التي يقوم مقامها نشاط العامل الصيني الذي لا يفتر ، — انما هو مستشفى جديد .

ومستشفى الاطفال الكبير ، في بيكين ، الذي زرناه بقيادة الطبيبين « يو » و « سو » هو جديد ، وعلى وشك افتتاح ابوابه . انه سيضم ستمئة سرير ، مع جهاز عامل ، مكون من الف موظف بين ممرضات واطباء .

ومستشفى الأطفال في شنغهاي جديد ايضاً . ويتسع لمئة وعشرين سريراً . وسيشاد بالقرب منه مستشفى آخر ، في الجهة الثانية من الشارع .

ومستشفى الاتحاد التعديني الكبير ، في انشان ، في

شمالي شرقي الصين ، ومستشفى الالياف ، تيين ـ تسين ، حيث يتطبب الاطفال فيها مجاناً ، هما ايضاً جديدان .

وهذه المستشفيات هي جميعاً مزودة باحدث الادوات الطبية ، وتلعب دوراً مضاعفاً في خدمة المرضى ، والتعليم الطبي .

وجميع علوم العلاج الحالية تستخدم اليوم ، وبصورة خاصة تلك التي اقتبست من التجربة السوفياتية . ودراسة البافلوفية (١) هي في غمرة تطورها . والولادة بدون ألم مطبقة تطبيقاً واسعاً ، في دور التوليد ، وتعطي النتائج الباهرة .

اما الادوية ، فأغلبيتها من صنع الصين نفسها ، التي تملك ، بصورة خاصة ، انتاجاً هاماً من البنسلين . ولكي تلبى الطلبات الملحة ، نظم التعليم الطبي والصحي ، بشكل اوصاف مختلفة هي : التعليم العالي الرسمي ، وقد انجز بسرعة ، فتخرج احدى عشر الف طبيب على هذا النحو . والتعليم المتوسط ، وقد كون ستة وستين الف طبيب . والتعليم الابتدائي ، وقد خصص في بضعة اشهر ، ثلاثمئة الف مأمور صحي .

●

في اطار المشاريع ، زود هذا الجهاز الاستشفائي بمراكز استجمام للعمال المصابين بأمراض مزمنة ، او الذين هم في

(١) البافلوفية : نسبة لبافلوف الطبيب والعالم السوفياتي الشهير ـ المترجم ـ

دور النقاهة ، مثل المصح رقم ٢ التابع لاتحـــاد نقابات انسهان . وبيوت العمال العجز . ففي مصح فوسهن الذي زرناه ، شاهدنا عجوزاً في الثالثة والسبعـــين من عمره ، مندهشاً كل الدهشة من كونه لا يقوى على العمل ، عقب اربعين سنة من الكدح المتواصل ، الخالي من يوم للراحة ! وهذا العجوز يتعلم القراءة للمرة الاولى ، لانه قال لنا : « اذا كنت عجوزاً ، فقلبي لما يزل فتياً » ...

ان هـذه المؤسسات قد خلقها ويديرها نقابات العمال ، التي على شاكلة نقابات الفلاحين ، تلعب دوراً رفيعـــاً في النهضة العنيفة من اجل الصحة الصينية . لقد قبضوا بأيديهم، وبوجه خاص ، على إدارة شركة ضمانات العمل ، التي تضارع شركة الضمان الاجتماعيـة عندنا ، المؤسسة عـــام ١٩٥٢ . وبفضل عملهم العنيد ايضاً ، يتدنى عدد حوادث العمل ، ولا تتوقف شروط العمل عن التحسن في المشاريـع .

مآل الطب الصيني القديم

فما هو مآل الطب الصيني القديم ، البالغ آلاف السنين ، في هذا التبدل ؟ وبالتالي ، ما هو هذا الطب القـــديم ، وما هي علاقاته في الصـين نفسها ، بالطب الحديث الذي نعرفـــه ؟

لقد كان النوعان من الطب ، في الواقع ، منفصلـين

حتى التحرير ، انفصالاً تاماً .

ومنذ ما وجدت المستشفيات ، والكليات في الصين ، والطب الحديث يطبق ويدرس . اما الطب القديم المبني على طرق تجريبية تقليدية : ادوية مركبة من الاعشاب ، وتربية بدنية صينية ، والعلاج بالإبر ، فقد كان ينتقل عادة من الاب الى الابن بواسطة التلقين .

هؤلاء الاطباء — على الطريقة الصينية — هم كثيرون جداً ، حتى الآن في الريف ، ويقومون بدور هام بين جموع الفلاحين .

وقد كانت احدى مناحي الحكومة الشعبية ، استخدام هؤلاء الاطباء ، الذين يقومون بدور ضروري في المعركة الوطنية الكبرى من اجل الصحة ، بتركها لهم الطب الصحي في الارياف ، وبتلقينهم الاساليب الحديثة للوقاية والصحة . وقد افتتحت لهم مدارس عديدة ، عب من مناهلها اربعون الف طبيب .

وعلى نقيض ذلك ، اشار ماوتسي تونغ على الأطباء الجدد ، ان يدرسوا من الأساليب الطبية القديمة ، تلك التي دلل الاستعمال على فعاليتها ، وأن يبحثوا عن التعليل الصائب لنتائجها . وعلى هذا النحو تكونت في مستشفيات المدن الكبرى ، فرق اطباء قدماء وجدد ، يجمعون معارفهم ، ليتقنوا وسيلة الشفاء . وقد شاهدنا فرق مماثلة تعمل في مستشفى سين ـ ينغ : البروفسور كيو شنغ ،

نائب رئيس الكلية ، يساعده الدكتور سو ، الاختصاصي « بعلاج الابر » وهما يدرسان معاً نتائج هذه الطريقة على مختلف الامراض .

ـ الشعب كله في المعركة ـ

وهكذا نجد ان شعباً ، بقضه وقضيضه ، وبدافع تحريض حكومته ، وبجمعها قواها في وثبة واحدة ، يسهم بحماس في المعركة الوطنية الكبرى ، التي تخوض الجماهير غمارها ، من اجل الصحة وتحسين شروطها .

وهذه المعركة ، قد اتخذت اكثر الاشكال تنوعـــاً : سينما ، ومعارض ، واعـلانات ، وصحف ، ومحاضرات ، وشروح عامة ، لا يسهم فيها رجل الصحة وحسب ، بل الكادحون الأكثر تنوراً : العمال منهم والعاملات والفلاحين والفلاحات ، وقادة النقابات المختارين ... الخ .

وقد لعبت النساء في هذا العمل الصبور الفخور ، دوراً جوهرياً . وبالتالي ، فان عددهن لكثير في الجهاز الصحي ، فمنهن : الممرضات ، والقابلات ، والطبيبات ايضاً . واغلبية اطباء التوليد هم من النساء .

. . .

وليس ثمة شك اذن ، بأن الشعب الصيني يجد مستقبلاً ساطعاً من الصحة والسعادة ، عقب قرون من بؤس رهيب

وآلام جمة احتملها بثبات . وهذا الانطباع ، استخلصناه اثناء زيارتنا ؛ وخلال تلك الاجتماعات ، التي قدم لنا فيها الشاي ، ووضعت الاثمار واللفائف تحت تصرفنا ، دلالة على حسن الضيافة الصينية ، كان مضيفونا يجيبون على اسئلتنا بصبر لا يحد .

ولم يفتهم قبل انصرافنا التشديد على نقائص العمل المنجز والتماس انتقاداتنا وارشاداتنا . ولم يكن في وسعنا الا ان نفصح عن اعجابنا ، وان نبادلهم التمني الحار بمبادلات ثقافية بين الصين وفرنسه ، تكون في صالح شعبينا ، وتقام تحت شعار صداقة حميمة ، لم تستتر خلال الاسابيع الجد قصيرة من اقامتنا في الصين الشعبية ... هذه الصداقة سنحتفظ دائماً بذكراها الخالدة ، خلود القوة العظيمة التي تمثلها الصين الجديدة ، في خدمة السلم ، وسعادة جميع الناس .

— الدكتور اويلسنتز —

— الفهرست —

●

انتهى طبع هذا الكتاب
على مطابع دار الكشاف
في ١٥ تموز ١٩٥٦



ستقرأ في هذا الكتاب

سيرة : المارد الجبار ، الذي استيقظ بعد سبات عميق ...
فانتفض بكل ما في كيانه شعبه اللجب من قوى خلاقة مبدعة..
فمزقه حجب الليل الصفيقة ، محققاً حريته وسيادته التي
طالما انتهكها أعداء الحياة ...
وانطلق نحو الشمس ...
لكي يتفاعل والعالم ؛ فيأخذ عنه منجزات
العلم الحديث ... ويمده بما لديه من مادة خيّرة ،
وثقافة عريقة في القدم ، أضاءت مشعل
الحضارة الأولى ، يوم كانت الأنسانية
تدرج في وادي الغباوة . »

الثمن
١٠٠
فدل